

الفصل العاشر

« نحن » اليهود « هم » العرب (٢) :

التعايش اليهودى العربى المفقود والبحث عن شعلة الأمل من الماضى

فى غضون سنوات قليلة فقط من ظهور دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ م، وصل التاريخ الطويل غير المتقطع على ألفى سنة وخمسمائة سنة لليهود فى الأراضى التى كانت قد صارت تعرف بأنها عربية وإسلامية إلى نهايته . ففى سنة ١٩٤٨ كان هناك حوالى ثمانمائة ألف يهودى يعيشون فى البلاد العربية (حوالى ٦ بالمائة من إجمالى عدد اليهود بالعالم) . وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة كان معظم هؤلاء اليهود قد غادروها .

وسوف يجادل هذا الفصل بأنه بينما كانت الصهيونية نفسها العامل الرئيسى الذى يفسر هذا الاستقطاب العرقى غير الضرورى والمأساوى حقاً بين العرب واليهود، كان يقع اللوم أيضاً على تدخل الإمبريالية الأوروبية فى الشرق الأوسط على نطاق واسع . وهذا يعنى النظر - بإيجاز - إلى كيفية تصعيد أوروبا القرن التاسع عشر التوترات الدينية فى الشرق الأوسط . ويعنى أيضاً النظر - وبإيجاز شديد مرة أخرى - إلى كيفية التى زادت بها أوروبا القرن العشرين من حدة الاستقطاب بين العرب واليهود، فى غمرة أزمته الإمبريالية، والتى أدت إلى نازية هتلر وشيوعية ستالين . والتواريخ المختصرة للصراعات التى خاضها العرب من أجل الاستقلال الوطنى فى العراق ومصر، تقدم دراسات حالة لاستكشاف كيف برزت هذه الضغوط المختلفة بنفسها .

وستكون المجادلة بأن سياسات القرن العشرين قد خذلت كلاً من العرب واليهود . ويختتم الفصل بتأمل بعض الأصوات غير العادية الساعية إلى مصالحة بين العرب واليهود فى القرن الحادى والعشرين .

وهناك باحثان صهيونيان، برنارد لويس ونورمان ستيلمان، برهنا على أنهما من

المصادر المفيدة نوعًا ما . والجدل معهما هنا لن يكون على أساس أن الأدلة التي يقدمانها منحازة؛ وإنما على أساس أنها أحادية أكثر من اللازم . ومع هذا، وعلى الرغم منهما، فإنهما يساعدان في توفير حجج قوية في قضية لم يكن قصدهما أن يوفراها .

الإمبريالية الأوروبية «أدانت الجماعات اليهودية» في البلاد العربية

كانت الدعاية الصهيونية ستجعلنا نصدق أن اليهود في البلاد العربية عانوا تحت الحكم العربي الإسلامي نفس القدر من السوء الذي عانوه تحت الحكم المسيحي الأوروبي، ولكننا نرى من تحليل جويتين الممتاز لأوراق الجنيزا القاهرية في العصور الوسطى، والتي ناقشناها في الفصل الرابع، أن هذه لم تكن هي الحال . وحتى برنارد لويس الذي كان حكمه على التاريخ العربي الحديث قد تم تسفيته بوصفه صهيونيا ومستشرقاً على يد إدوارد سعيد (الفصل الخامس) يسلم راضحاً في كتابه *Jews of Islam* بأن أحكام «أهل الذمة» التي كانت تطبق على الرعايا غير المسلمين تحت الحكم الإسلامي لم تكن تطبق في أغلب الأحيان، ويكتب لويس أن «الصدقات الشخصية، وشركات الأعمال، والتلمذة الفكرية، وغيرها من أشكال النشاط المشترك، كانت عادية، بل كانت شائعة وعامة في الحقيقة» (٥٦ : ١٩٨٤) والحقيقة أنه يمضى أكثر من ذلك :

«إن التعايش بين العرب واليهود في العصور الوسطى أقرب ما يكون إلى نموذج أوروبا الغربية وأمريكا في العصر الحديث، وكان مختلفاً تماماً الاختلاف عن الموقف في الإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية العثمانية، والإمبراطورية الروسية . وحسبما أوضح البروفيسور جويتين، أنتج هذا التعايش شيئاً لم يكن مجرد ثقافة يهودية باللغة العربية . لقد كانت ثقافة يهودية-عربية، أو ربما يقول المرء بأنها ثقافة يهودية إسلامية» (٧٧ : ١٩٨٤) .

في فترات الضغط السياسي، وعندما كان العالم الإسلامي عرضة للتهديد كان يتم التشديد في أحكام أهل الذمة، ومن المؤكد أنه كان يمكن أن تتطور العداوة تجاه الذميين . فهناك يهودى بريطانى «منفى» من الأراضى العربية، اسمه لوسيان جوباى، يرصد ازدواجية هذه التجربة اليهودية في العالم الإسلامى بعنوان كتابه الموحى

(Sunlight and Shadow (Gubbay 1999) ، ونحن نتساءل ما إذا كان مسلمو بريطانيا وبعض الأقليات العرقية الأخرى سيكونون يمثل هذا الكرم إزاء تجربتهم فى تقلبات أحوال العنصرية، لأعلى ولأسفل، فى بريطانيا المستنيرة الحديثة).

ومن سوء الحظ أن لويس لا يخبرنا سوى عن «الظل» الذى يخيم على العلاقات الإسلامية- اليهودية فى الفترة الحديثة.

والصهيونية أيضا لا ترى سوى «الظلال»، وزعمت لنفسها دور المنقذ لهؤلاء اليهود من البلاد العربية والإسلامية، التى أجبروا على الفرار منها حسب زعم الصهاينة، وهذا قلب يثير السخرية للأسباب والنتائج. إذ كانت الصهيونية نفسها عاملا رئيسيا فى تقويض وضع اليهود فى البلاد العربية والإسلامية. وعلى حد تعبير نورمان ستيلمان فى كتابه The Jews of Arab Lands in Modern Times وهو أكثر المصادر مرجعية بالنسبة للدراسات اليهودية عن هذه المسائل:

«بحلول أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، كانت التوترات بين اليهود والسكان المحيطين تتصاعد فى كل مكان بالعالم العربى. وفى أثناء العامين الأخيرين قبل الحرب العالمية الثانية، كان ثمة تدفق فى الحوادث التخريبية تستهدف الممتلكات اليهودية الخاصة والعامية فى العراق، وسوريا، ولبنان، وللمرة الأولى فى مصر. وكان العامل الأول هو الصراع فى فلسطين، الذى تحول فيما بعد بين سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٣٩ إلى تمرد صريح ضد الانتداب البريطانى والمشروع الصهيونى» (١٢-١١١: ١٩٩١).

وتكمن أهمية هذا المنظور فى أنه يجعلنا نتساءل عن الشائعة الصهيونية الكاذبة «اللاسامية العربية». فلم تكن للتوترات بين العرب واليهود أى علاقة باللاسامية فى الاستخدام الأوروبى للمصطلح.

وقد زادت هذه التوترات فى تناسب مباشر مع نمو المستعمرة الصهيونية، التى كان ينظر إليها على أنها رأس جسر لنفس الإمبراطورية البريطانية بسبب استفزازها مطرداً، وهى الإمبراطورية التى كانت تسيطر هى والإمبراطورية الفرنسية على الأراضى العربية فى كل مكان وعلى الشعب العربى. وقد فاقمت الحركة الصهيونية الشكوك والريبة، التى كانت تتزايد بالفعل، فى ولاء اليهود بالبلاد العربية لقضايا

التحرر العربي . فاليهود والأقليات غير المسلمة ، مثل المسيحيين كان يمكن أن يظهروا بمظهر المستفيدين من الحكم الأجنبي :

«في نفس الوقت الذي كان اليهود والمسيحيون في معظم أرجاء العالم العربي يرون بتجربة شعور متصاعد بالتحرر من القيود والعجز الذي ميز الماضي ، متزاوجاً مع الآفاق المتسعة للفرص ، كانت الأغلبية المسلمة - باستثناء النخبة المتمدينة - تشعر باطراد أنها في موقف الدفاع ، وأن تقاليدھا ، ونظامها الإجتماعی ، واستقلالها نفسه في خطر . ونفس القوى التي كانت تمثل الجانب الطيب والخير بالنسبة لمعظم اليهود والمسيحيين كان ينظر إليها من جانب المسلمين نظرة عكسية . كما أن التفاؤل الناشئ لدى الأقليات كان يتناقض بشكل ملحوظ مع التشاؤم والريبة التي حكمت الأغلبية» . (Stillman 1991:45)

وحتى لويس جاء أكثر وضوحاً بقوله «إن الحكم الإمبريالي بدأ عصراً جديداً من التقدم التعليمي والازدهار المادي لدى اليهود . بل إنه أكد المصير النهائي لهذه الجماعات» (Lewis 1984:172-3) .

ومن سوء الحظ أن البحث العلمي لكل من ستيلمان ولويس محدود بدعمهما للمشروع الصهيوني . وكتاب ستيلمان يدور أساساً حول التحرش المتزايد بالأقليات اليهودية في سياق الاضطهاد الذي وصفه بدقة . ونادراً ما يتناول الجهود التي بذلها الراديكاليون العرب واليهود في البلاد العربية ، والتي صممت على إيجاد قضية مشتركة في النضال من أجل التحرر العربي والذين وجدوا جمهوراً مهماً داخل الجماعات اليهودية . وشجاعة القيادات التقليدية للجماعات اليهودية ، التي ناضلت لكي تتمسك بالصمود في مواجهة انتهاكات الصهيونية ، لا تحظى سوى بقدر قليل للغاية من الاهتمام . ومع هذا فإنه أثار نقطة حاسمة تماماً حول القوى الأوروبية الاستعمارية التي كافحت لكي تفصل الأقليات غير المسلمة في بلاد الشرق الأوسط عن المسلمين . ويتطلب هذا المزيد من التوسع في التوضيح .

وها هو السير نيقيل هندرسون المندوب السامي البريطاني في مصر سنة ١٩٢٦م يقول :

«إن قدرًا قليلًا من كراهية الأجانب ليس شيئًا سيئًا بحد ذاته، لأنه يدفع بالأجنى إلى أن يتهمى بقدر أكبر لاعتبار السيطرة البريطانية والنفوذ البريطاني ضمانه الوحيد... هذا هو بالتأكيد الوضع المثالي:

إنه ينبغي على المصري أن يعتبرنا أصدقاء له وحماية ضد الأجنى الغاصب، وأن يعتبرنا الأجنى ضمانه الوحيد ضد الظلم والتفرقة من جانب المتعصب المصري». (kramer1989:232).

لاحظ كيف تم تعريف اليهودى فى مصر على أنه «أجنى» وحقا كان معظم يهود مصر مهاجرين وفدوا حديثا، بيد أنه لم يكن لبريطانيا أى مصلحة مطلقا فى رؤية هؤلاء المهاجرين، أو الأقلية اليهودية المستوطنة التى تفخر بجذورها العميقة فى مصر^(١)، تندمج فى الأمة المصرية العربية، البازغة حديثا، والتى يحتمل أن تشكل تهديدا.

وفى كل مكان حكم البريطانيون والفرنسيون فيه بالشرق الأوسط، عمدوا إلى توسيع الفجوة بين الأقليات الدينية من اليهود والمسيحيين والأغلبية المسلمة. وكان هذا قد بدأ كوسيلة سياسية لتقويض الإمبراطورية العثمانية بتقديم أشكال مختلفة من «الحماية». ثم حول منح المواطنة بعض اليهود والمسيحيين إلى وكلاء مباشرين للسلطات الاستعمارية البريطانية والفرنسية بعد أن حلوا محل العثمانيين^(*). ففى الجزائر، على الرغم من كونها مثالا استثنائيا، وحيث سيطرت فرنسا منذ سنة ١٨٣٠م، كان كل يهود الجزائر قد صاروا مواطنين فرنسيين بحلول سنة ١٨٧٠م (Stillman 1991:17). وفى مصر، حاولت فرنسا تقويض سلطة بريطانيا بتقديم منح المواطنة الفرنسية. أما البلاد الأوروبية الأخرى، مثل إيطاليا، فكانت تلعب نفس اللعبة هى الأخرى. وفيما بين الحربين، كان ما يزيد عن ربع يهود مصر إما يحملون جنسية أجنبية أو تحت «الحماية» الأجنبية. (Kramer 1989:31-2).

وقد تركت المؤسسات التعليمية المسيحية واليهودية الأوروبية أثرا مشابها بتوفير التعليم الحديث (باللغات الأوروبية)، مما جهز الأقليات غير المسلمة بنصيب لا يتناسب

(*) هل تتكرر نفس السياسة الآن فى مصر ولبنان والعراق؟ وهل بقية دول الشرق الأوسط فى الطريق - المترجم.

مع عددها من المهارات المهنية الحديثة . وفيما بين اليهود، كانت مدرسة Alliance Israelite Universelle التي تتخذ من باريس قاعدة لها ناجحة بدرجة هائلة . وحتماً، كانت أنشطتها «قد أعيد تنظيمها بسرعة في الدوائر الرسمية باعتبارها امتداداً مهماً لما رأوا فيه مهمة فرنسا الثقافية» (Lewis 1984:162) . وفي الدولة الجديدة التي أنشأها الاستعمار في العراق، رحب الموظفون البريطانيون بتوسع الأنشطة التجارية للطبقة التجارية اليهودية العربية القديمة . وكتبوا تقارير عن تواءمهم السريع والمميز مع الفرص التجارية المتزايدة بالبلاد، ولاحظ المندوب البريطاني المدني في سنة ١٩١٨م «إن العناصر التي نحتاج إلى تشجيعها أكثر من غيرها هي الجماعة اليهودية في بغداد» ويقتبس حنا بطاطو من هذا المندوب الذي كان يخدم الإمبراطورية البريطانية في كتابه *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements in Iraq* والذي يعد واحداً من أهم الكتب في تاريخ الصراع من أجل استقلال العراق (1978:244 - 6,311).

وفي الوقت نفسه، عندما تعمقت أزمة أوروبا القرن العشرين الأيديولوجية والسياسية، صارت بالحثم متداخلة مع المقاومة العربية القومية والإسلامية النامية ضد السيطرة الاستعمارية البريطانية والفرنسية على أراضيهم . وكما ذكرنا، كان هناك استيراد لنزعة معاداة السامية الأوروبية . وعلى الرغم من هذا لا يجب النظر بالضرورة إلى تأييد ألمانيا في الحرب العالمية الثانية في هذا الضوء . فقد كانت المسألة مسألة مساندة عدو عدوى باعتباره صديقي، وارتبطت أحياناً باعتقاد ساذج ، وفي بعض الأحيان بلاهة واضحة، في صدق عروض هتلر - التي تدعو للسخرية - للأمة العربية المقهورة . وكانت البرقية التي أرسلها فاروق ملك مصر إلى هتلر سنة ١٩٤١م، حالة دالة في الموضوع ، إذ كان يتطلع إلى وصول الجيش الألماني «الذي سيحررنا من النير الإنجليزي القاسي الذي لا يَحتمل» (Kramer 1989:125) أما القوميون العرب الأكثر إدراكاً، فلا بد أنهم عرفوا أن الفوهرر الألماني خاطب جيشه سنة ١٩٣٩ بقوله «سوف نستمر في إثارة الاضطراب في جزيرة العرب . . . ولنفكر باعتبارنا السادة ولنر في هؤلاء الناس أنصاف قرود خدم يريدون أن يشعروا بلسعة السوط» (Kramer 1989:262n.122).

وفي الوقت نفسه كان الجناح اليساري من حركات المقاومة العربية قد اكتشف أن

الترحيب الحماسى بالماركسية أيضا كان يعنى فى العادة تأييد ستالين والاتحاد السوفييتى ، وسوف يبرهن هذا على كونه انقساماً كارثياً . ذلك أن تأييد ستالين والأحزاب الشيوعية العربية لخلق دولة إسرائيل ، قد قوى من حجة القوميين العرب والإسلاميين اليمينيين الذين جادلوا بأن اليهودية والصهيونية والشيوعية ، كلها فى الأساس شىء واحد .

وأية دراسة لتاريخ العراق خلال هذه السنوات ، توضح كيف ستلعب هذه الضغوط المركبة دورها وتسىء إلى العلاقات بين اليهود والمجتمع الأوسع ، وهو ما كانت الصهيونية فى ذلك الحين قادرة على استغلاله . وقد استفادت الصهيونية بشكل خاص من الاستياء الشعبى المتصاعد ، ورفض سيطرة بريطانيا على العراق .

اليهود والنضال من أجل تحرير العراق

فى سنة ١٩٢٠م ، كان تقدير الإدارة البريطانية لإجمالى سكان العراق حوالى مليون وثلاثة أرباع مليون ، ومنهم حوالى مائة ألف يهودى . وكانت غالبية اليهود تعيش فى بغداد والبصرة (Shiblak 1986:18)^(٢) وكانت الجماعة اليهودية فى العراق هى الأقدم فى العالم العربى والإسلامى وتفخر بشدة بجذورها الممتدة إلى بابل فى بلاد ما بين النهرين قديماً ، ولم تكن تتقبل دعوات الصهيونية .

وفى سنة ١٩٢٢م ، كان مناحم صالح دانيال ، وهو من أعيان بغداد البارزين من عائلة يهودية قديمة ، وصار فيما بعد نائباً بالبرلمان العراقى ، قد كتب فى أدب ولكن فى حزم ، يطلب من الصهاينة أن يبقوا خارج العراق :

«فى كل البلاد العربية تعتبر الحركة الصهيونية تهديداً للحياة الوطنية العربية . . . وأى تعاطف مع الحركة الصهيونية ينظر له على أنه خيانة للقضية العربية .

. . . ولاشك فى أن اليهود يتمتعون حقاً بمكانة محترمة . فهم يشكلون ثلث سكان العاصمة ، ويعملون فى النصيب الأكبر من تجارة البلاد ، ويقدمون مستوى من التعليم أعلى من المسلمين . ويعتبر اليهودى فى نظر المسلم الناهض شخصاً ذا حظ جيد ، ينتظر منه أن يرد الجميل للبلد الذى يعيش فيه» (Rejwan 1989:207) .

وبعض اليهود العراقيين سوف يقدمون إسهامهم فى نهضة الأمة العراقية . فأول

قصة قصيرة عراقية حديثة في فترة ما بين الحربين، كتبها يهودى هو مراد ميخائيل، وكانت تحمل عنوان «شهيد الوطن وشهيدة الحب» وكان ميخائيل واحداً من الجيل الأول من الكتاب اليهود العراقيين الذين رأوا في أنفسهم «وطنيين عراقيين كانوا يأملون بشغف في ظهور عراق جديد، دولة مفتوحة وديموقراطية حديثة». (Somekh 1989:14). وفي هذه الفترة كان ما يقرب من ثلث كبار الموسيقيين العراقيين من اليهود (Shiblac 1986:28)..

وكان أنور شاؤول كاتباً من هذا الجيل ولد في الحلة جنوب العراق. وكان يكتب الشعر والرواية وقام بعدة ترجمات. وفي سنة ١٩٢٩م أصدر صحيفة ثقافية هي «الحصيد»، إحدى عدة صحف وجرائد أسسها الكتاب اليهود، قدمت كتاباً جدد من اليهود وغير اليهود على السواء. وتم انتخاب شاؤول -الذى كان يحظى بتقدير كبير من رفاقه الكتاب المسلمين والمسيحيين- في سنة ١٩٣٢م في اللجنة التي رحبت بالشاعر الهندى ذى الشهرة العالمية تاجور في بغداد.

وتحتفى السيرة الذاتية التى كتبها شاؤول بالحلة، وهى مكان يعرفه فى فخر بأنه جزء من بابل القديمة على نهر الفرات. ويكتب عن شجرة عائلته اليهودية العراقية الشهيرة عائلة ساسون، ولكنه يصف رأس العائلة بأنه الشيخ ساسون، متعمداً أن يربط شيئاً خاصاً وحساساً مثل السلطة فى العائلة بالمفاهيم الثقافية العربية الإسلامية. وكانت أمه بالرضاعة مسلمة أرضعته مع ابنها. وكان الأخوان فى الرضاعة قد التقوا مرة أخرى لقاء عاطفياً فى سن النضج ببغداد. (Somekh 1989:18).

التهديد: الضغوط وهزيمة الوثبة

قوضت الحرب العالمية الثانية، وتصميم بريطانيا على جر العراق إليها ضد رغبته، مجهودات الزعماء اليهود الذين كانوا يسعون إلى دمج الجماعة اليهودية فى الحركة من أجل الاستقلال الوطنى العراقى. حرضت السياسة العسكرية البريطانية سنة ١٩٤١م إلى أقصى حد أعمال الشغب المنحوسة ضد اليهود، والتى سميت أحياناً الفرهود، والتى خلفت مئات من الموتى.

ذلك أن الدعم الملموس من جانب اليهود للمجهود الحربى البريطانى، وعودة

ظهور الجيش البريطاني في العراق، يبدو أنه كان سببا في أعمال الشغب، على الرغم من أنه لا توجد رواية مرضية عنه. يشير ستيلمان إلى دور بريطاني كاذب، ما يزال بحاجة إلى تحقيق، وكذلك انتشار الدعاية النازية الصريحة. (1999:119,413-16)

وربما كان الدعم الذي قدمه الجيران المسلمون لليهود في الأماكن التي اختلطوا فيها ببعضهم البعض، والموقف التقدمي الذي تبناه الزعيم الروحي للمسلمين الشيعة في بغداد، قد ساعد على تهدئة أعصاب يهود العراق (Rejwan 1989:223-4). كان الصهاينة قادرين على رصد بعض المكاسب قصيرة المدى (Shiblak 1986:54) على الرغم من أنه ليس هناك شك في أن الفرهود كانت صدمة وخلفت جرحا عميقا.

أما الوثبة «أقوى عصيان مسلح في تاريخ الملكية» (Batatu 1978:545) والذي نشب في أعقاب الحرب مباشرة، فكان يهدف جزئيا إلى استمرار التورط البريطاني في البلاد. وكان لها إمكانية تضميد الجراح التي سببتها «الفرهود». وقد أثار الوثبة البلاد عن بكرة أبيها، بما في ذلك الكثيرين من مواطنيها اليهود. ولكن ما حققته الوثبة من مكاسب، تمت مقايضتها بهزيمة العرب في الحرب ضد الصهيونية في فلسطين عام ١٩٤٨، وبسلوك الحزب الشيوعي العراقي.

وأثناء أحداث «الوثبة» حتى الحركة السرية الصهيونية اضطرت أن تعترف بأنها كانت «فترة إخاء» عندما كانت فكرة الهجرة إلى الدولة اليهودية في فلسطين «تبدو بعيدة للغاية» (Shiblak 1986:55).

وتعكس السلوكيات الغربية لحزب الاستقلال العراقي القومي اليميني المواقف السياسية المتبدلة تجاه اليهود في ذلك الوقت. فعندما قتل شاب يهودي، هو شميران علوان على أيدي البوليس خلال «الوثبة»، وصفته صحيفة اليقظة التي كانت تؤيد حزب الاستقلال بأنه شهيد الشعب العراقي في حربه من أجل الحرية (٥ فبراير ١٩٤٨م)، وأثناء الشهرين التاليين كثيرا ما نشرت اليقظة أسماء المساهمين اليهود في الجهود الحربية العربي بفلسطين (Shiblak 1986: 55-6) ومع ذلك فبعد ثلاثة أشهر بالضبط (٣ مايو ١٩٤٨) كانت اليقظة تدين الشرور الثلاثة «الشيوعيين والصهاينة واليهود» (Shiblak 1986:65) لقد قلبت حرب فلسطين الموازين. ومنحت السلطات العراقية العذر لفرض قانون الطوارئ والتحمل بشدة على الجناح الراديكالي في الوثبة

وخاصة الشيوعيين . وتم إعدام ثلاثة من زعمائهم علنا بالشنق . وقد سلم الشيوعيون أنفسهم سلاحاً دعائياً لليمن بتأييدهم دولة إسرائيل المُشكَّلة حديثاً . وقد خسروا نفوذاً حقيقياً ، وربما حاسماً ، في توجيه حركة الاستقلال . كان الضامن المحتمل في الحركة الوطنية العراقية لمقاومة اللاسامية قد فشل في اختبار بالغ الأهمية : وهو معارضة الصهيونية دوغماً تنازل :

«أدى القرار بشكل محزن إلى الخط من شأن الشيوعيين في أعين الجماهير الشعبية ، وعمقت الفجوة بينهم وبين الوطنيين من كل طيف ، وجلبت الفوضى الرهيبة داخل صفوف الحزب نفسه» (Batatu 1978:566)

وفي الوقت نفسه ، دخل حزب الاستقلال في الحكومة .

وكان وقت استغلال اللاسامية ، كما حدث في أوروبا ، كآلية للسيطرة الاجتماعية ، وسحق المعارضة وتحويل الانتباه بعيداً عن فشل الحكومة . إذ أن انتصار إسرائيل في حرب ١٩٤٨م قد بين الإحساس الخطر بالفشل . وتم طرد اليهود من الوظائف الحكومية . وتم شنق رجل أعمال يهودى ثرى علنا بزعم أنه باع مخلفات الجيش البريطاني لإسرائيل . وتم القبض على الصهاينة العراقيين . كما أن العصبة المناهضة للصهيونية ، وجريدتهم اليومية «العصبة» والتي كانت فعالة جداً في تهميش نفوذ الصهاينة في الجماعة اليهودية ، قد أغلقت وتم القبض على زعمائها واتهموا بكل من الشيوعية والصهيونية! وقد استغل طرد إسرائيل للعرب الفلسطينيين لتبرير التهديدات بطرد يهود العراق .

ومن المحتم أن الحكومة الإسرائيلية وأصدقاءها في الغرب كان لديهم يوم مشهود لإدانة النصر الوليد لظل هتلر الذي كان يقال حينئذ إنه يطوق الأمة العراقية . كما أن الصهاينة العراقيين الذين عقدوا العزم على تدمير الزعامة التقليدية لليهود العراقيين ، حققوا نصراً ساحقاً على رئيس الجماعة اليهودية العراقية ، الراباي (الربى) ساسون خدورى ، بإجباره على الاستقالة .

كان خدورى شخصية رئيسية ، وعلى ثقة بأنه أياً كانت مكائد الحكومة العراقية فإن الروابط التاريخية العميقة بين يهود العراق وبقية الشعب العراقي سوف تصمد أمام الأزمة الراهنة . وعلى حد تعبير معلق بارز في الجويش كرونيكل التي تصدر بالولايات المتحدة ، كتب :

«إن ساسون وأولئك اليهود البغداديين الذين لديهم ما يخسرونه لا يحبون الصهيونية؛ لأنها جلبت عليهم البؤس. إنهم يعرفون أن هناك هبات معادية لليهود في بغداد قبل الصهيونية، ولكن على العموم، ساعد التسامح الإسلامي اليهود البغداديين على أن يزدهروا بوصفهم مركزا للتعليم والتجارة. وهم ومن على شاكلتهم سوف يحبون أن يبقوا. إنهم مشدودين إلى بيوتهم، وتقاليدهم، ومزارات الأنبياء، ولن يحبوا أن يتركوها لكي يبدأوا الحياة مرة أخرى في معسكر مهاجرين بإسرائيل، حيث يعتقدون أن الناس ليسوا ودودين بصفة خاصة مع اليهود الشرقيين» (٣٠ ديسمبر ١٩٤٩، أوردها (Shiblak 1986:77).

هذه الملاحظات البصيرة أمسكت بدقة باللحظة الحيوية في مصير الجماعة اليهودية العراقية التي يرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠ سنة مضت. وكان رئيس اليهود قد اشتكى بمرارة من إهانة العراق في الصحافة الغربية، التي بالغت بشكل خارج عن كل المقاييس في مستوى اللاسامية بالبلاد. وقد تذكر فيما بعد بصورة تهكمية كيف «كانت الدولارات الأمريكية تذهب لإنقاذ اليهود العراقيين - سواء كان اليهود العراقيون يحتاجون إلى الإنقاذ أم لا. لقد كانت هناك مذابح يومية في جريدة نيويورك تايمز تحت سطور التواريخ التي لاحظ قليلون أن أخبارها جاءت من تل أبيب» (Shiblak 1986:76).

واحتقار الراباي (الربى) الرئيس السابق لمزاعم الصهيونية عكست ثقته في أن موجة المشاعر المعادية لليهود سوف تخبو. وعلى أية حال، كانت هذه أزمة غير مسبوقه زادت وطأتها حتى وصلت نقطة الانكسار بسبب التدخل الخارجى من جانب البريطانيين والأمريكيين والصهاينة. وحدث أيضا أنها كانت أزمة لا يوجد بشأنها رواية تاريخية مرضية. على الرغم من أنها كانت تدمر الجماعة اليهودية العراقية بالفعل. وما يلى عدد قليل من الحقائق الأساسية، على الرغم من أنها تترك العقل تماما.

مهرجان رد الفعل

كيف ساعدت بريطانيا والولايات المتحدة واسرائيل الحكومة العراقية على تدمير الجماعة اليهودية العراقية؟

أولا: لدينا موظفون حكوميون بريطانيون يلهون المواقف المعادية لليهود من جانب الحكومة العراقية، لكي يحسنوا خططهم الجديدة الرائعة لمساعدة إسرائيل في «حل»

مشكلة اللاجئين الفلسطينيين التي كانت إسرائيل نفسها هي التي خلقتها. ويمكن «مبادلة» اليهود العراقيين بالعرب الفلسطينيين المطرودين من إسرائيل - وهي خطة لم تتحقق أبداً بطبيعة الحال. ووضعوا بعض التوابل على مقترحاتهم برؤية داخلية من لدنهم ذات خصائص محلية ونكهة لا سامية. وهنا عيتان فقط من بحث عباس شبلاق المدقق في وثائق الخارجية البريطانية التي ترجع إلى تلك الفترة:

«إذا كان يمكن تحويل هذا التهديد [بطرده اليهود العراقيين] إلى ترتيبات ينتقل اليهود العراقيون بمقتضاها إلى إسرائيل ويتلقون تعويضات عن ممتلكاتهم من الحكومة الإسرائيلية، على حين يتم توطين اللاجئين العرب بممتلكات اليهود بالعراق، فإن هذا سوف يبدو شيئاً يستحق الثناء.... فإن العراق سوف يستريح من أقلية موقفها عرضة دائماً لأن يضيف المصاعب في الحفاظ على النظام العام في وقت التوتر...» (Foreign Office to British Embassy, Baghdad, 5 september 1949 cited Shiblak 1986:83).

وكون أن الحكومة البريطانية كانت تستخدم قنوات دبلوماسية لنشر الموضوع بين الأصدقاء العرب الموثوق بهم يبدو واضحاً من هذا الخطاب إلى مكتب العلاقات الخارجية Foreign office من القنصلية البريطانية في القدس:

«ويمكن أن يكون على الأقل اهتماماً أكاديمياً إذا ما وضعت الآن في السجل، وهي ملاحظة أبدأها لي القايكونت صمويل [أول مندوب سامي بريطاني في فلسطين بعد إعلان بلفور] عندما كان في فلسطين سنة ١٩٤٩ م. وقد تناول الشاي مع زوجتي بعد أن تناول الطعام مع الملك عبد الله ملك الأردن. وبينما كنا نناقش استيلاء اليهود على الممتلكات العربية، قال لورد صمويل: إن الطريقة الواضحة لحل هذه المسألة كانت بالنسبة للعراقيين هي أن يطردوا اليهود الموجودين لديهم ويستولوا على ممتلكاتهم...» (British Consulate, Jerusalem to Foreign Office, 24 march 1951 cited Shiblak 1986:84 n. 20).

ثانياً: لدينا ظهور عملاء الصهيونية من إسرائيل، يعقدون صفقات مالية سرية غاية في الخسة والوضاعة مع السياسيين العراقيين، في أعلى مستويات الحكومة، لكي ينظموا

خطة «إخلاء» الجماعة اليهودية العراقية عن طريق الجو . ومع ذلك لم يكلف أحد نفسه عناء استشارة اليهود العراقيين أو معرفة رأيهم. وتورطت شبكة نقل جوى أمريكية فى الصفقة، بمؤازرة من حكومة الولايات المتحدة. ووقفوا بعض السياسيين العراقيين مع المشروع لكى يربحوا ماليا، بما فيهم رئيس الوزراء، السويدي (19-115 1986 Shiblak).

ويؤكد التقرير الذى كتبه الباحث اليهودى العراقى المحافظ، البروفيسور إيلى قدورى، فى مدرسة لندن للاقتصاد London School of Economic المنطلق الأساسى لوصف شبلاق هنا. وقدورى حاقده على سلوك بعض العملاء الصهيونية، واتهمهم بالاستيلاء على (سلطة مغتصبة لا سيطرة عليها) فى الجماعة اليهودية العراقية، وهو يقتبس عن مير بصرى، أحد القادة التقليديين للجماعة اليهودية، والذى لم يكن يعارض فى ذهاب اليهود العراقيين إلى إسرائيل، ولكنه فى الوقت نفسه عبر عن القلق بشأن معاملة المهاجرين اليهود الفقراء. إذ أنهم لم يروا مرة أخرى مدخراتهم وغيرها من الأشياء الثمينة التى عهدوا بها إلى الموظفين الصهيونية الذين عينوا أنفسهم بأنفسهم (4-53: 1989 kedourie).

ثالثا: كان مشهد الحكومة العراقية وهى تجهز نفسها للاستيلاء على أعمال وممتلكات أكثر اليهود ثراء. وكان همفري تريشيليان، ممثل بريطانيا فى العراق موجودا لتقديم المشورة المفيدة. فقد أخبر تريشيليان رئيس الوزراء العراقى، وهو السويدي، أنه يجب أن يدرس الإجراء الذى اتخذ من جانب الحكومة الإسرائيلية فيما يتعلق بالممتلكات التى تركها اللاجئون العرب» (50: 1989 kedourie).

وأخيرا كان هناك سلسلة من تفجيرات القنابل، فيما بين أبريل سنة ١٩٥٠م ويونيه ١٩٥١م، فى المناطق التى كان اليهود يتجمعون فيها، بعدما صار واضحا أن معظم اليهود العراقيين ليس لديهم النية لمغادرة البلاد - على الرغم من كل الضغوط التى مورست عليهم للرحيل.

وحيتنذ أعلنت السلطات العراقية أنها كسرت حلقة جاسوسية وقبضت على زعمائها. وقد اتهم الدليل الذى قدم للمحكمة بعض الأفراد العسكريين الإسرائيليين بأنهم وراء حملة تفجيرات القنابل، وكذلك التورط فى شبكة صهيونية عراقية سرية.

وأثناء فترة الأربعة عشر شهرا التى لم يقبض فيها على أحد بسبب تفجيرات

القنابل ، بدأ الذعر يستولى بقبضته على الجماعة اليهودية فى العراق . وسجل عشرات الألوف من اليهود العراقيين أسماءهم طلبا للهجرة .

وعلى الرغم من أن الحكومة الإسرائيلية قد أنكرت مسؤوليتها دائما ، والحكومة العراقية كانت مهتمة بشكل يثير السخرية بأنها «تقنع» مواطنيها اليهود السابقين بأن يتركوا البلاد ، كانت هناك اتهامات دائمة تشير بأصبع الإتهام إلى السلطات الإسرائيلية . وقد قدمت صحيفة «الفهد الأسود» وهى صحيفة تنطق بلسان يهود البلاد العربية المتضررين ، تقريرا مفصلا عن الأنشطة الصهيونية فى أوائل سبعينيات القرن العشرين . وهذا أيضا هو رأى ديفيد هيرست ، المراسل المميز لصحيفة الجارديان فى الشرق الأوسط^(٣) .

ومذكرات ويلبر جرانى إيفلان ، الذى كان مستشارا سابقا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى بغداد آنذاك ، والتي تحمل عنوان « Ropes of Sand » (1980) تشير حتى إلى تورط الولايات المتحدة الأمريكية فهو يكتب أن وكالة المخابرات المركزية CIA كان من رأيها أن الموقف فى العراق كان «مبالغا فيه ويتم إشعاله إصطناعيا من الخارج» إلا أن «وزارة الخارجية الأمريكية حثتنا على التدخل لدى الحكومة لتسهيل الجسر الجوى الذى كان الصهاينة ينظمونه لإنقاذ بقية اليهود العراقيين» (Shiblak 1986:121-22) .

وتمشى الدراسات التاريخية اليهودية على أطراف أصابعها حول هذه الحوادث ، حتى بعد مضى حوالى نصف قرن على حدوثها . إذ أن ستيلمان يقذف بالحكاية كلها فى هامش ملتف وغير واضح ، ولكنه يشعر بأنه مضطر إلى اقتباس جوهره حكمة حقيقية من قدورى ، الذى لاحظ ببساطة أن «الصهاينة كانوا قادرين على استخدام مثل هذه الأساليب» (Stillman 1991: 162 n. 49) .

وفى ١٩٥٨م تمت الإطاحة أخيرا بالملكية العراقية الفاسدة التى أقامتها الإمبريالية البريطانية بواسطة انقلاب الضباط الأحرار ، بقيادة اللواء عبد الكريم قاسم . لقد كان ذلك هو العمل الذى لم تنجزه «الوثبة» ، وقد أشعل حماسة مظاهرات التأييد الجماهيرية الضخمة .

واستمر نظام حكم عبد الكريم قاسم خمس سنوات لا غير . ولكن حتى في ذلك الوقت القصير، برهن دونما شك، على أن الزعماء القوميين العرب، إذا ما أتيحت لهم فرصة الحكم دون تدخل خارجي، كانوا قادرين على ممارسة مسئولياتهم تجاه رعاياهم اليهود.

ويتذكر مير بصري، زعيم الجماعة اليهودية العراقية، قائلاً باسم حوالي ثلاثة عشر ألف يهودي بقوا في العراق ما جرى: «كانت تلك فترة ذهبية لمن بقي من اليهود العراقيين» (The Scribe, June 1988) (٤).

وكان رئيس الوزراء الأسبق السويدي واحداً من السياسيين العراقيين السابقين الذين حوكموا بتهمة الخيانة على أيدي نظام الحكم الجديد. وإحدى العبارات التي قرئت في عريضة الاتهام كانت أنه كان قد ساعد إسرائيل «بالسماح لمائة ألف عراقي أن يصبحوا مواطنين إسرائيليين» (Woolfson 1980:196).

ناصر في مصر

هل كان يمكن للقومية العربية التقدمية أن تحرر العرب واليهود؟

يظل الانقلاب العسكري الذي قام به تنظيم «الضباط الأحرار في مصر سنة ١٩٥٢ م - وهو النموذج الذي احتذى به ضباط الجيش العراقي الثوريون^(٥)، ثم ما تلاه من ظهور جمال عبد الناصر رئيساً لجمهورية مصر - هو أهم حادث في التاريخ الوطني العربي. وقد جاء بعد سنوات من الاضطراب في مصر، وفي خضم هبوط معنوي واسع المدى في جميع أنحاء العالم العربي في أعقاب الهزيمة في الحرب الإسرائيلية - العربية حول فلسطين سنة ١٩٤٨ م. وكان ذلك علامة على حزم عربي أقوى كثيراً وأشد حيوية بعدما يزيد على مائة سنة من المهانة على أيدي الإمبريالية الغربية، وخاصة بريطانيا وفرنسا. وكان مقدرًا لناصر أن يصير هو النقطة المحورية للتطلعات القومية العربية في جميع أرجاء الشرق الأوسط.

فماذا كان موقف الضباط الأحرار من يهود مصر؟ قدم لنا ستيلمان تقريراً مذهلاً:

«النظام الثوري الجديد في مصر... خرج ليؤكد لليهود وغيرهم من الأقليات التي

كانت قد اهتزت على نحو سئٍ بالأحداث التي جرت أواخر أربعينيات القرن العشرين وأوائل الخمسينيات (عندما كانت المشاعر المعادية لليهود تتصاعد زمن حرب فلسطين وتكوين الدولة الإسرائيلية). فقد قام اللواء محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة والقائد المحبوب شعبياً بزيارات علنية لمؤسسات الجماعة اليهودية بالقاهرة والإسكندرية، بما في ذلك ظهور غير مسبوق لرئيس مصرى بالمعبد اليهودى الكبير بالقاهرة فى يوم كيبور (الغفران)، بعد شهرين فقط من الوصول إلى الحكم. ورفضت الحكومة الجديدة بوضوح أن تخلط بين الجماعة اليهودية المحلية والعدو الصهيونى ورفضت بقوة الدعوات التى انطلقت من داخل الجامعة العربية لتجميد ممتلكات اليهود فى جميع الدول الأعضاء...

هذه الفترة القصيرة الصافية بدأت حتى نهاية سنة ١٩٥٤م عندما عزل ناصر - الذى كان هو القوة الحقيقية وراء الثورة - اللواء محمد نجيب. وأثناء السنة نفسها، تم كشف شبكة تخريب وتجسس مكونة من شباب يهود مصريين يعملون لحساب إسرائيل ... وقد أدى هذا إلى تقويض جهود العمل على استقرار الجماعة اليهودية فى مصر» (Stillman 1991:168-9).

وللأسف يترك ستيلمان الموضوع عند هذا الحد، تاركاً أسئلة حيوية تلح فى طلب الإجابة. هل كانت هناك علاقة بين شبكة التجسس والتخريب، التى تسمى أحياناً «عملية سوزانا»، والمرتبطة بالفضيحة المعروفة باسم فضيحة لاقون، وقدم ناصر إلى سدة الحكم؟ ماذا كان موقف ناصر من الجماعة اليهودية، أو موقفه من العدو الصهيونى؟ وهل كانت هناك علاقة بشبكة التخريب فى العراق؟ على السطح يبدو هناك تطابق عجيب. على أية حال، لم يقم الدليل على أن هناك رابطة بينها. كما أن هناك فروقاً حاسمة. ففي العراق، كان الهدف الأول هو بث عدم الاستقرار وزعزعة الجماعة اليهودية. أما فى مصر فلا شك أن هذا كان من النتائج ولكنه لم يكن الهدف الأساسى. وفى العراق عكس ما حدث بعمق اتجاه رغبة الحكومة الملكية العراقية التى كانت تشاطر إسرائيل رغبتها فى اقتلاع الجماعة اليهودية العراقية، وهو ما أسماه

قدورى «التواطؤ البشع» (Rejwan 1997:45). وفى البداية لم تكن لدى جمال عبد الناصر مثل هذه الرغبة. وفى العراق لم تكن لدى إسرائيل مشكلة مع الحكومة الرجعية. ولكن منذ اللحظة التى تولى فيها جمال عبد الناصر السلطة، كان هدفاً لحملة إسرائيلية متواصلة للقضاء عليه.

كان هذا على الرغم من استعداده [ناصر] المدهش - والمعروف قليلاً - لاستكشاف إمكانية سلام حقيقى ومشرف مع إسرائيل. والواقع أن هناك رأياً جديراً بالتأمل بأن القصد من «عملية سوزانا» كان إفشال مناقشات السلام السرية هذه. ومن المؤكد أنه يبدو - مع فائدة الإدراك بعد فوات الأوان - أن ذلك كان بداية للعد التنزلى الطويل المدى للقضاء على جمال عبد الناصر على أيدي إسرائيل وحلفائها الغربيين.

وما كان يثير إسرائيل بشكل خاص تلك المناقشات التى كانت تجرى بين جمال عبد الناصر والحكومة البريطانية حول انسحاب الحامية البريطانية من منطقة قناة السويس. وكانت إسرائيل تعارض حصول مصر على الاستقلال الحقيقى. وكانت «عملية سوزانا» مؤامرة لخلق انطباع بالفوضى فى الدولة الوطنية الجديدة لكى تقنع البريطانيين بأن وجودهم العسكرى ما يزال ضرورياً. (Shlaim 2000:112).

وكان جمال عبد الناصر نفسه هو الذى أثار الأسئلة بشكل خاص حول هدف المتآمرين لقطع المناقشات السرية بين ممثليه وممثلى رئيس الوزراء الإسرائيلى موسى شاريت (Shlaim 2000:119)^(٦). وتشير مذكرات أحد المتآمرين إلى استنتاج مماثل (Beinin 1998:278n.32).

وقد حاولت الحكومات الإسرائيلية المتوالية دائماً أن تبقى الغطاء محكماً على ما حدث حقاً. وقد انفجرت الأصداء طويلة المدى «لعملية سوزانا» أو «فضيحة لافون» فى وجه بن جوريون أوائل ستينيات القرن العشرين، مما دمر مصداقيته بصورة خطيرة. والحقائق الأساسية هى كما يلى:

كان لافون وزير الدفاع فى حكومة شاريت. وكان شاريت يعتبر فى نظر الكثيرين رجلاً ضعيفاً بلا كفاءة. وفضلاً عن ذلك كان يشك فى أنه متساهل مع العرب. بل كان له أصدقاء من العرب، وهو أمر نادر حقاً بين الزعماء الصهاينة (Shlaim 2000:97). أما لافون فكان متشدداً متطرفاً، وقد شجع بن جوريون على

تعيينه فى منصبه، وكان بن جوربون ما يزال نشيطا على الرغم من تقاعده المؤقت، ويقف وراء ما يجرى فى المشهد. وقد تم تنظيم عملية سوزانا دون معرفة شاريت على أيدي عناصر من المخابرات العسكرية.

وقد أنكر لاقون دائما أنه أعطى الأوامر؛ ومع ذلك ثم توجيه اللوم إليه. وقد عجل إصرار لاقون فيما بعد على أن يثبت براءته بتنازل بن جوربون النهائى عن نفوذه. وعلى الرغم من أن المؤامرة تحولت إلى خيبة ثقيلة، وتم القبض على مفجرى القنابل قبل حدوث أى ضرر خطير، فإن ناصر والسلطات المصرية قد اهتزوا من جرائها بطبيعة الحال. لقد كانت على أى حال ما نسميه اليوم تهديداً إرهابياً. وكان جزء من الخطة يقضى بأن توضع القنابل فى دور السينما التى تعرض أفلاماً أمريكية وبريطانية، فى وقت متزامن مع الاحتفال بالذكرى السنوية لثورة الضباط الأحرار، مما يسبب خسائر لا تعد فى الأرواح.

واللافت للنظر أن جمال عبد الناصر قد حافظ على خطوط الاتصال مفتوحة مع شاريت، وقبل كلمة شاريت بأنه لم يكن متورطاً. وكان شاريت هو الذى أقفل المحادثات عندما انتهت محاكمة متأمري التفجيرات فى القاهرة بحكم الإعدام على اثنين من المتهمين. وكان شاريت يضغط على جمال عبد الناصر لكى يتجنب حكم الإعدام، ولكن - حسبما أوضح شلايم - لم يكن بوسع عبد الناصر أن يستجيب لهذا لأن حكم الإعدام كان قد تم تنفيذه منذ فترة وجيزة على أعضاء فى جماعة الإخوان^(*). ولم يكن من الممكن الدفاع عن التعاطف مع الإرهابيين اليهود بقدر أكبر من الإخوان المسلمين (2000:121).

وفى الوقت نفسه قدم شاريت رواية مختلفة جدا للأحداث للبرلمان الإسرائيلى وعمامة الجمهور. إذ كان قد اتهم الحكومة المصرية بإجراء محاكمة مظهرية ليهود مصريين أبرياء. واثنان منهم سيتم إعدامهما. وسادت حالة من الهيستيريا لتلهب إسرائيل كلها ضد مصر تحت حكم جمال عبد الناصر.

(*) ولكن بعد خمسين سنة، أصبحت الحكومة المصرية فى حالة ود وصفاء مع الصهيونية ومع شارون صاحب السجل الإرهابى المتفرد، ونفور ورفض، إن لم يكن عدا، للإخوان المسلمين.

واستقال لاثون، وخلفه بن جوربون وزيراً للدفاع. و كان بن جوربون مصمماً على تأكيد سلطته على شاريت وعلى جمال عبد الناصر. وفي غضون أسبوع واحد فقط كان قد نظم «عملية السهم الأسود»، وهي غارة عسكرية سرية داخل غزة. (Shlaim 2000:123-9).

كانت غزة تحت الإدارة المصرية على أساس الهدنة بين مصر وإسرائيل في نهاية الحرب الإسرائيلية - العربية سنة ١٩٤٨. وكان القصد من عملية السهم الأسود أن تمزج بين أقصى درجات الاستفزاز وأقصى درجات الإذلال لجمال عبد الناصر. فقد تم قتل سبعة وثلاثين جندياً مصرياً وجرح واحد وثلاثون، في مقابل ثمانية جنود قتلى وتسعة جرحى من الإسرائيليين. وكان ذلك أخطر صدام بين مصر وإسرائيل منذ اتفاقية الهدنة، وقضت إلى الأبد على أية أوهام لدى ناصر في أن يبحث عن حل سلمى للصراع العربى الإسرائيلى. فمنذ تلك النقطة سوف يعتبر جمال عبد الناصر أن إسرائيل أداة الإمبريالية الغربية وعدواً لدوداً.

وهنا يبدأ الطريق إلى أزمة السويس سنة ١٩٥٦م، وهزيمة جمال عبد الناصر فى حرب ١٩٦٧م. كما أن الأسلحة المصرية التى سلمت إلى الفلسطينيين فى معسكرات اللاجئين تبدأ هنا أيضاً. وقد بنى مستقبل شارون المهنى على قتل العرب وكانت بدايته فى وقت سابق بالمذبحة التى ارتكبها فى قرية قبية الأردنية سنة ١٩٥٣م (Shlaim 2000:90)، ولكن غارة غزة أسبغت على هذا إثارة مدوية. فقد كان شارون هو القائد العسكرى لهذه العملية. وقد كانت عملية السهم الأسود أكثر من تعويض لفشل عملية سوزانا.

ولكن يهود مصر هم الذين دفعوا الثمن النهائى: فبعد السويس أجبر الكثيرون على الرحيل من البلاد (Beinin 1998:86-7). وليست لدينا طريقة لمعرفة ما إذا كان جمال عبد الناصر يستطيع هو وثورته أن يحتضنوا الأقلية اليهودية، ولكن إسرائيل كانت قد خربت جهود ناصر للسلام، وكذلك مكانة يهود مصر. ويعبر آقى شلايم عن ذلك بمرارة واضحة:

«هذه الهجمات بدا وكأنها تؤكد أسوأ الأنماط المصرية عن خيانة اليهود وازدواجية سلوكهم وأسوأ المخاوف بشأن المؤامرات الشيطانية التي تحيكها إسرائيل لتقويض وحدتهم الوطنية واستقلالهم» (2000:118).

فقد كانت عملية سوزانا قد دمرت الثقة في ولاء يهود مصر ووطنيتهم. وثمة شاهد إسرائيلي مهم، ومن المؤكد أنه مدهش، يدعم هذا الاستنتاج. ففي أوائل تسعينيات القرن العشرين البكرة، كان عالم الأنثروبولوجيا عمانويل ماركس يخدم مديراً للمركز الأكاديمي الإسرائيلي في القاهرة، وهو مؤسسة يحط من قدرها الوطنيون المصريون باعتباره مركزاً للتجسس والتخريب. وبعد أن ترك ماركس القاهرة عائداً إلى عمله في التدريس بجامعة حيفا، افترض أنه لولا عملية سوزانا، لما حل الدمار بالجماعة اليهودية في القاهرة: «إن أولئك المسؤولين عن الأعمال القذرة [يقصد المخابرات الإسرائيلية وعملياتها التخريبية والإرهابية] قد استغلوا اليهود في مصر... وقد سبب هذا تمزق العلاقات» (Beinin 1998:239).

اليهود في العالم العربي

ضحايا سياسات النشل في القرن العشرين

ألفريد دريفوس، ضابط بالجيش الفرنسي تم القبض عليه في واحدة من أشهر فضائح اللاسامية في القرن التاسع عشر، رفض الصهيونية باعتبارها حافلة بالمفارقات (على الرغم من أن الصهيونية تاجرت باسمه في سعادة. انظر الفصل السادس)، وكانت تلك ملاحظة تتعلق تماماً بالموضوع. وكان يعني أن الصهيونية هربت في وجه الثورة الفرنسية سنة ١٩٧٩م. فقد كانت الثورة قد طالبت بفصل السياسة عن الدين في الدول الوطنية الديمقراطية البازغة حديثاً في أوروبا.

والصهيونية - بينما تتشرف بهذا المثال - قد مارست عكسه. لقد ربطت الديانة اليهودية إلى عربة الاستعراض القومية الخاصة بها، التي ظهرت إلى جانب الأمم الأوروبية، في الشرق الأوسط، باعتبارها جزءاً من مجموعة إمبريالية غازية، ثم طالبت بالأرض العربية باسم يهود العهد القديم.

لماذا ينبغي أن نتوقع من الإسلام والأمة العربية أن تقدم التنازلات للعالم الحديث

بشأن فصل السياسة عن الدين بينما لانطالب أكثر ممثلى الغرب استفزازاً أن يفعل هذا؟ إن هذا للدليل إضافى على غطرسة الغرب وعلى نزعة «الاستشراق» الباقية لديه.

ولدينا هنا نقص خطير يشوب سياسات الحداثة. إذ أن صهر الدين بالقومية - على نحو يحمل مفارقة لا منطقية، ولكنه مزروع عمداً - قد أتاح لقبلة موقوتة أن تضرب دقاتها فى الشرق الأوسط. ولا بد أن قادة الإمبراطورية البريطانية كانوا قد تنبأوا بها، ولكن، على العكس كان يناسبهم أن يلعبوا مع الصهاينة وهم يهندسون - أو يصطنعون - تحويل الديانة اليهودية إلى أيديولوجية قومية. كان ذلك هو الظرف المناسب والأساس المنطقى لزراع جمهرة من المستوطنين اليهود الأوربيين فى فلسطين بطريقة مصطنعة. وكان عرب فلسطين هم أول الضحايا. أما ثانى الضحايا فكانوا هم اليهود فى العالم العربى.

لقد نجحت الصهيونية فى خلق أزمة ولاء سياسى لهؤلاء اليهود. إذ أنها جعلت منهم - دوغماً ضرورة على الإطلاق - أجنبى فى ثقافة كانت بالنسبة لكثير منهم هى ثقافتهم الخاصة على مدى أكثر من ألف سنة. والأسوأ من هذا، أنها كانت تعنى أنهم كان يمكن أن يظهروا بمظهر الخونة فى البلاد النامية حديثاً والتي تناضل للإطاحة بالسيطرة الأجنبية. لقد كسبت الصهيونية الحرب الأيديولوجية بالفعل وختمت على مصير هؤلاء اليهود، عندما صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة، فى نوفمبر سنة ١٩٤٧م على تقسيم فلسطين العربية إلى دولة عربية ودولة يهودية. وفى اليوم السابق، كان محمد هيكل، أحد زعماء حزب الأحرار الدستوريين المصرى، وهو حزب وطنى علمانى له سجل جيد فى الدفاع عن يهود مصر، كان يسلم تماماً بأنهم - يجب أن يكونوا مواطنين كاملى المواطنة فى مصر المستقلة - كان هيكل قد حذر الأمم المتحدة بقوله: «إذا كان الدم العربى يراق فى فلسطين، فإن الدم اليهودى سوف يراق بالضرورة فى كل مكان آخر، على الرغم من كل الجهود المخلصة للحكومات المهتمة لمنع مثل هذه الردود الانتقامية» (Beinin 1998:60)^(٧).

كان التحذير يخفى اعترافاً بالاستسلام. فقد كان الغرب قد نجح فى فرض يهودية مشوشة ومسيسة تماماً باعتبارها قومية لكى تخدم مصالحها فى العالم العربى. وكان لا بد من الردود الانتقامية المتوقعة أن تكون هى التكتيكات السلبية البائسة بلا جدوى من

جانب الأمة العربية المهانة. وكان لا بد للعنف الذي انطلق على المدى القصير أن يخلى مكانه لعزلة اليهود في العالم العربي على المدى الطويل.

ليلى مراد، نجمة السينما في العالم العربي.... وخائنة؟

إن مصير ليلى مراد، وهى واحدة من أبرز ممثلات العالم العربى فى القرن العشرين، «وسندريلا الشاشة المصرية... والمطربة الثانية بعد أم كلثوم التى لا تُبارى» (Beinin 1998:83-5) هو العكس^(٨). فبعد ظهورها فى ٢٨ فيلماً على مدى ما يزيد على عشرين عاماً، وتسجيل مئات الأغنيات، وهى ابنة حاخام يهودى ورئيس جوقة منشدين فى المعبد اليهودى، (Alcalay 1993:254)، تقاعدت فجأة سنة ١٩٥٥ م. وكانت تقارير الصحافة المصرية والعربية قد اتهمتھا سنة ١٩٥٢ م بأنها منحت مبلغاً كبيراً من المال إلى إسرائيل. وقد أنكرت هذا الاتهام بصلافة. وقد أصابها إحباط خاص لأنها كانت قد أعلنت اعتناقها الإسلام برغبتها عندما تزوجت الممثل والمخرج أنور وجدى سنة ١٩٤٦ م «إننى مسلمة مصرية»، هذا ما أعلنته.

وعلى الرغم من هذا كله بقيت لها شعبيتها الواسعة فى مصر، وهويتها المختلطة ما بين الإسلام واليهودية كانت مصدراً للجدل، ومن المؤكد أنها قد سببت الكثير من الفضول والتعاطف وكذلك العداة.

وبعد أن حققت السلطات المصرية فى التهم الموجهة ضدها وجدت أنها بريئة. وعلى أية حال فإن الحكومة السورية لم تكن مقتنعة واستمرت فى فرض حظر شامل على أفلامها وأغانيها. وخلال المفاوضات لقيام الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٨ م بين مصر وسوريا، أصر جمال عبد الناصر على رفع الحظر على أعمالها، واستجابت الحكومة السورية إذعائاً (Beinin 1998:84-8).

وقصة ليلى مراد هذه إنتاج حى، دراما عربية يهودية حقيقية، وهى كذلك جزء من التاريخ العربى - اليهودى فى القرن العشرين. ولكنها ليست معروفة كما هى. وهنا يصرخ فشل الأساليب السياسية فى وجوهنا. إن عبارة «التاريخ العربى - اليهودى» نفسها تصرخ فى جلبه. إنه تاريخ مفقود، إنه يقىس لنجاح الصهيونية فى فصم الروابط بين العرب واليهود. وعند بداية القرن الحادى والعشرين كانت المذاهب القومية الخائفة

والرجعية التي تتمسح بالحكمة فى الدول العربية الطاغية تلتقى مع الرؤية الصهيونية . وكان نمو جماعات الإسلام السياسى المتشددة هو البديل الحتمى . أما البديل الشيوعى فكان قد كشف عن إفلاسه . والشيوعيون الجدد الذين يتتمون إلى حركة معاداة العولمة ، وحنفة من القوميين العرب التقدميين ، الذين كانوا يناضلون ضد انهيار الروح المعنوية وضد القهر ، والذين هم على استعداد للتضحية برؤوسهم ، يقدمون الأمل ، بيد أنهم ما يزالون غاية فى الضعف بحيث لا يمكنهم تغيير الحال ، ولا عجب فى أن تنظيم القاعدة قد اقتحم المشهد - وهو الرمز الكامل على الإخفاق السياسى .

« التهوية على شرارة الأمل فى الماضى »

علينا أن نصل إلى ذلك التاريخ المفقود . باكتشاف هذا الماضى مرة أخرى ، يمكننا - على حد تعبير والتر بنيامين - أن نكتشف أن :

« موهبة التهوية على شرارة الأمل من الماضى ، (وهى عملية مجهدة) ، قوة ارتجاعية سوف تستدعى باستمرار أن نتساءل عن كل نصر - فى الماضى وفى الحاضر - للحكام » (Alcalay 1993:215) .

وربما كتب أميل الكلالى الذى يقتبس هذه القطعة الرائعة ، أحسن كتاب عن اليهود القادمين من العالم العربى فى القرن العشرين . وهو ليس تاريخاً بالضبط ، ولكنه نبوءة شعرية جسورة ، بيد أنها مؤقتة تماماً . وهى تأخذ بدايتها من حكاية ليلى مراد الخيالية على نحو غير مقصود . وهناك إيماءات مُعذبة تشير إلى طريق الخروج من الأزمة ، بيد أن المستقبل يبقى غائباً فى ضبابات الغموض والشك . وعندما تفشل السياسة ينبغى للشعر أن ينهض بالمهمة .

فقد جمع الكلالى طاقماً من المعارضين : يهوداً وبعض الفلسطينيين وفنانين ، وروائيين وشعراء بالأساس ، ممن ترعرعوا فى الأراضى العربية . وهم يريدون بديلاً لرؤية اليهود فقط «من خلال الفيلم الكئيب والدموى غالباً الذى يُسمى الصهيونية» (1993:57) . وهو ، والكتاب الذين يقتبس عنهم يكسرون حاجز الماضى القريب بتوضيح كيف يذوى هذا الفيلم عندما يوضع فى ضوء الماضى البعيد ذى الثقافة الإسلامية الراقية . ومثل هذا التناول يلقى الضوء أيضاً على المستقبل .

ولكننا نبدأ بالنظر إلى الماضي القريب ، من خلال عيون هؤلاء الكتاب ، عندما يدرسونه بأمانة شديدة . ألم تكن الجماعات اليهودية أقرب إلى الحكام الإمبرياليين الأوروبيين الغربيين للبلاد العربية فى القرن العشرين بأكثر مما يجب؟ وهناك فقرة تبلغ الذروة من إسحاق جور ميزانو جورين فى الرواية الثانية من ثلاثيته التى تحمل عنوان صيف الاسكندرية ، وضعها فى مصر قبل ثورة ١٩٥٢ مباشرة . وهو يصف شغباً كاد ينشب حول الأعراق والأجناس عندما يسبق فارس سباق (چوكى) ، وهو ابن ليهودى اعتنق الإسلام ، فارساً بدوياً :

«اندلعت صرخة مفزعة من حلق البدوى الأسود المتعطش للدماء . وعلى الرغم من أنها كانت تحمل كل علامة مسرح من الدرجة الثانية ، فإنها أفلحت فى أن تصدم الجمهور المتجمع لبرهة من الزمان . وطبعاً كان هناك أولئك الذين وجدوا أن هذا النوع من السلوك الفج مرفوضاً ، ولم يروا فيه سوى عدم القدرة على الهزيمة بكرامة ، ولكن الأغلبية سمعت أصداً مختلفة تمام الاختلاف فى تلك الصيحة . وفيما بعد ، فى المحكمة ، قال بعضهم : إنه سمع فى تلك الصيحة عذاب مصر الذى يسببه لها الأجنب» (Alcalay 1993:259).

وشعر أميرة هيس «يبحث أيضاً فى صندوق الماضى المحرم» (Alcalay 1993:260). وفى قصيدتها التى تحمل عنوان «القمر يصطبغ بالجنون» تخبرنا :

أنا ابنة بغداد

يمكنك أن تقسم

كنت من أهالى لندن

أتذكر تلك البوابات من الحديد

وكل ذلك التآلق الذهبى

الحراس على خيولهم والخيالة

يالها من ريح تقرص قدامى

لكى تذكرنى بأننى كنت أنتمى روحاً

ولكنى لا آخذ الجسد

الذى ملكه الوهن والارتعاش

وعندما ظهرت هيس فى برنامج دردشة أدبية فى إسرائيل ، كان مضيفها متحيراً تماماً بشأن الإشارة إلى لندن فى القصيدة . وتطلب الأمر أن يقوم ضيف آخر ، هو سامى ميخائيل اليهودى العراقى سابقاً ، لكى يشرح أن الميدان محل التساؤل فى القصيدة كان نسخة من ميدان لندن شيدته السلطات الاستعمارية البريطانية . ويعلق الكالاي : «إن مباني بغداد زمن الاستعمار ، وتغيير الحراس تكون فى الحال هى الامتداد الأعمق لمشهد الطفولة ، كما أنها عبء يبعث القشعريرة فى العظام» (1993:261).

وفى وقت ما حوالى سنة ١١٦٠م ، توقف الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى ليحملق مندهشاً فى المسجد الكبير بدمشق ، وكتب :

«هنا حائط من زجاج البللور من بديع صنع الإنسان ، وبه ثقب بحسب أيام السنة ، وعندما تدخل أشعة الشمس كلاً منها فى تتابع يومى يمكن معرفة ساعات اليوم بواسطة مزولة مدرجة . وفى القصر المكون من غرف مبنية من الذهب والزجاج ، إذا مشى الناس حول الحائط يكون فى وسعهم أن يرى أحدهم الآخر ، على الرغم من أن الحائط قائم بينهم» (Alcaly 1993:119).

ويقارن الكالاي ملاحظات بنيامين التطيلى بما كتبه جاكين كاهانوف الكاتبة التى ولدت فى القاهرة وترعرعت فيها فى القرن العشرين ، والتى رأت فى منطقة شرق المتوسط :

«ليست منطقة غربية أو شرقية خالصة ، وليست مسيحية أو يهودية أو إسلامية خالصة . وبسبب تنوعها ، فإن منطقة شرق المتوسط تقارن بلوحة من قطع أحجار الموزايكو الصغيرة التى تم تجميعها سوياً فى صورة مسطحة . وهى بالنسبة لى تبدو أقرب إلى المنشور تتصل وجوهه المختلفة عند الحافة الحادة للاختلافات ولكن كلاً منها . . . يعكس الضوء أو ييشه . . . وربما يكون الأوان قد أن لمنطقة شرق المتوسط لكى تعيد تقييم نفسها فى ضوءها نفسه ، بدلاً من أن ترى نفسها فى أضواء أوروبا ، باعتبارها شيئاً دخيلاً ، متعباً ، ومريضاً ، ويكاد يكون بلا حياة» (Alcaly 1993:27).

وتحتاج الاختلافات - حتى الجادة منها - ألا نخون الوحدة الجوهرية للمنطقة . وعلى أية حال فإن بوسعنا أن نرى ، ونفهم ويحترم كل منا الآخر من خلال الزجاج الذى يفصلنا عن بعضنا البعض . ويمضى إلياهو إلياشار - الذى تتنابه تعاسة عميقة بسبب وطنه الجديد ، إسرائيل - شوطاً أبعد بالجدل . إن مفهوم أرض إسرائيل قد خان وحدة المنطقة ، وهو يطير فى وجه المعنى الحقيقى للماضى كما يسد طريق الحل فى المستقبل :

«إن أرض إسرائيل جزء صغير من المنطقة التى تقطنها شعوب كثيرة ، ومعظمهم يعتقدون ديانة واحدة ، وتملكهم رغبة قوية فى الوحدة . إن أرضنا لم تكن أبداً وحدة جغرافية محدودة : فقد كانت وما تزال عند معبر الطرق بين الشرق والغرب ، بين مصر وآشور وبابل فى الماضى . واليوم ، فإن بلادنا هى الكيان الوحيد الذى يمنع الوحدة التى يراها العرب مثلاً» (Cited Alcalay 1993:24) (*).

هل السوق يبالغ فى الاختلافات ويفاقمها أم يقللها إلى الحد الأدنى؟ على مدى ألف سنة برهن المسلمون واليهود على أنهم تجار بارعون . إذ أن قوس التجارة العربية الإسلامى العظيم ، الذى يوحد بين البحر المتوسط والمحيط الهندى ، توقع الطفرة الثورية للرأسمالية الأوروبية الغربية بما يزيد على خمسمائة سنة . ومع ذلك لا يمكن إنكار أن معاداة السامية فى أوروبا القرن العشرين وجدت من يؤازرها عندما وجهت شعاراتها التى تحض على الكراهية القاتلة ضد اليهود الذين يكسبون من التجارة . بيد أن الإسلام كانت له وجهة نظر أخرى احتفظ بها تقليدياً . وعلى حد تعبير إبراهيم أودفيتش ولوسيت فالينسى :

«حق اليهود . . . نفذه المسلمون باعتباره كلمة السر لاختصار المساومات . واختتام أية مناقشة بتنفيذ «حق اليهود» يعادل القسم بالأيمان . . . لأن أهل الكتاب هم أهل القانون ، إذن يمكنك التعامل معهم» (Alcalay 1993:21).

ومثل هذه المناقشة تعود بنا حتماً إلى جويتين ، المؤرخ البارز فى التاريخ العربى - اليهودى . ولنذكر أنفسنا (الفصل الرابع) أن جويتين لم يحاحك فى عظمة الإمبراطورية العربية الإسلامية . وكان مأخوذاً بالتأثير التحويلى على يهود بابل القديمة فى العراق

(*) يحتمل هذا النص معانى كثيرة ، وقد تكون متعارضة . وقد استشهد به المؤلف كما هو تماماً ، أما رأى المؤلف نفسه فى أسطورة أرض إسرائيل ، فيمكن الرجوع له فى الفصول : الأول والخامس والسادس .

ورفاقهم فى الدين بكل مكان آخر . وربما يكون الأمر أيضا أن جويتين قد ملأ دوغما قصد فجوة تركتها دراسة أبرام ليون الرائدة عن كيفية أن الجماعات اليهودية فى أوروبا العصور الوسطى قد قيض لها أن تكون تحت قيادة طبقة تجارية متحركة تماما (الفصل الثالث) . وقد كتب جويتين وهو يقدم وثائق الجنيزا :

«مع حركة الفتوحات العربية الكبرى التى أعقبت ظهور الإسلام . . . هكذا بدأت الفترة الطويلة والعظيمة فى التعايش العربى اليهودى . . . وفى وقت الفتوح العربية الإسلامية ، كانت غالبية اليهود ما تزال تشتغل بالزراعة والعمل اليدوى . . . وقد اختفى الشعب اليهودى كشعب زراعى خلال القرنين السابع والثامن بعد الميلاد ، ولكن على عكس السكان القدماء ، عادوا إلى الحياة أمة من التجار والحرفيين . . . » (Alcaly 1993:36) .

وقد تصادف التحول الاقتصادى مع تقوية دور المرشد الدينى والروحى لليهود فى كل مكان ، وهو التلمود البابلى ، ومركزه الجديد الفخور فى مدينة بغداد المبنية من جديد .

وفى تاريخه الذى يحمل عنوان History of Jews ، يناقش نسيم رچوان الصحفى المولود فى بغداد ، وهو ناقد أدبى ومؤرخ ، من المعجبين بجويس ، وكافكا ، ومان ، وأورويل (Alcaly 1993:45) هذه المسألة بشكل مطول . وهو بهذا يعطينا -ربما عن غير قصد- ما نسميه صهيونية عكسية أو مقلوبة .

إذ تنقلب الأساطير المتعلقة بالنفى فى الكتاب المقدس - وهى أساطير حيوية بالنسبة للمشروع الصهيونى - رأساً على عقب . ونفس الأساطير المبكرة عن النفى ، أى ترحيل اليهود على أيدي الآشوريين منذ ٢٧٠٠ سنة ، ثم على أيدي البابليين قبل ٢٦٠٠ سنة ، تحولت إلى احتفالات بالحياة اليهودية فى بابل بلاد النهرين القديمة .

فلم «يرجع» معظم اليهود عندما احتل الفرس بابل منذ ٢٥٠٠ سنة ، ويقال إن الملك الفارسى قورش ترك اليهود يعيدون بناء المعبد فى القدس . هذا على الرغم من كل «البكاء على ضفاف أنهار بابل» (Rejwan 1989:24) .

وهناك يوجد بعض التاريخ الحقيقى . إذ أن هناك دليل على استمرار الاستيطان اليهودى فى بابل ، وهناك تفسير لاستمراره ، والذى بقى ألف سنة حتى الفتح

الإسلامي، فقد كان الحكم الفارسي عموماً هو الأفضل من حكم الرومان. ويستدعى رچوان (1989:9) شهادة المؤرخ اليهودي الكبير في القرن العشرين، سالو بارون.

ويسبر رچوان أغوار رابطة بلاد ما بين النهرين بشكل أعمق. ألم تنشأ الفكرة اليهودية أصلاً هنا في بلاد ما بين النهرين، وطن أول سجلات الحضارة في المنطقة، كذلك موطن النبي إبراهيم، المؤسس الروحي للديانات التوحيدية الثلاث الكبرى، اليهودية، والمسيحية، والإسلام؟ يكاد يكون من المؤكد أن بعض قصص الكتاب المقدس، قد كتبت في بابل. فقصة الخليقة، والطوفان وبرج بابل تحمل «تشابهات مذهلة» مع الأدب البابلي (Rejwan 1989:5).

كذلك يجد رچوان نزعة عالمية في التلمود البابلي، وهو أكثر حججاً من نظيره التلمود الفلسطيني، الذي كتب بعده بقرون في أعقاب الانتصار الروماني في القدس. وهو يكتشف عظات مؤثرة عن مبادئ المساواة الإنسانية، يشدد على اليهود في علاقاتهم مع غير اليهود (5 - 64:1989) في خضم رسائل متناقضة، وبالرغم من سريتها وغموضها. ثم جاء الفتح الإسلامي آنذاك ليشجع الوجود اليهودي في العراق. وعت جماعة يهودية - بسرعة فائقة - في مدينة الكوفة التي كانت معسكراً للقوات العربية الإسلامية جنوب العراق. وكانت هناك جماعة يهودية كبيرة في البصرة تخرج منها العلماء والأطباء، الذين تولوا مناصب في مصر وفلسطين (4:83-84:1989:Rejwan). وصار مركز التلمود البابلي آنذاك في بغداد. وقد كان من نعم الإسلام على التعليم اليهودي أنه أدى لانفتاحه على تأثيرات كان يسعى إلى تجنبها قبل ذلك. ويقتبس رچوان عن ابراهام هالكين الذي كتب:

«لقد وجدت مفردات العقيدة الإسلامية طريقها إلى الكتب اليهودية: وصار القرآن كتاب برهان ودليل. والممارسة العربية بوضع الشعر في مؤلفاتهم، أخذها عنهم اليهود. إذ حفلت الكتابات اليهودية بجمل من مؤلفات العلماء والفلاسفة والفقهاء... فليس هناك عداة تجاه التعليم الأجنبي... ولا انزعاج من أنها نفس نفس «الحكمة اليونانية» التي حذرت المصادر التلمودية من أن يدرسوها ليلاً أو نهاراً» (148:1985:Rejwan).

وهناك المزيد - وأكثر من المزيد - يمكن أن يقال عن هذا. فهل يمكن الوثوق بينيامين

التطيلي في ملاحظته التالية التي كتبها في بغداد القرن الثاني عشر، عن زيارة چيونم الذي كان رئيس الأكاديميتين التعليميتين العظيمتين بالمدينة؟

«كان الخيالة من اليهود وغير اليهود يرافقونه كل خميس عندما يذهب لزيارة الخليفة. ويمضى أمامه المنادون يعلنون «افسحوا الطريق لسيدنا، ابن داود، وريثه» وهو يرتدى ثياباً من الحرير المطرز... ويقوم الخليفة ويجلسه على العرش [بجانبه]... ويقف الأمراء المسلمون في حضرته».

ويورد لوسيان جوباي مؤلف كتاب Sunlight and Shadow هذه الفقرة دوغما تمحيص (1992:52). وربما كان محققاً في فعل هذا. أم أنها من [مثل] موتيفات المؤرخ اليهودي يوسيفوس؟ أم هي زخرفة شعرية ترمز إلى وحدة الديانتين. ويجب أن نضع في حسابنا أنها تحدثنا عن قرون من التعايش العربي-اليهودي.

ولتوجه بسرعة إلى القدس في بداية القرن العشرين. انظر وتأمل، فهذا التعايش القديم يعاود الظهور على السطح. وها هو كتاب يعقوب يهوشع بعنوان Childhood in Old Jerusalem، الذي صدر عند بداية القرن العشرين، يتذكر القدس القديمة التي كانت عربية إسلامية على مدى الشطر الأكبر من فترة طولها ألف سنة. وهو يصف اليهود السفارديم، الذين لهم جذور عميقة في المنطقة تعود إلى إسبانيا الإسلامية:

«إن أبناء وبنات عائلات اليهود السفارديم في القدس، كانوا أتباعاً شغوفين للموسيقى العربية. وكانوا يحتفظون في احتراس شديد بأخر الأغنيات التي تم تأليفها في القدس أو تم إحضارها من القاهرة، وكان كل واحد يستمتع بأعمال سلامة حجازي وكذلك أعمال الآخرين ممن زاروا القدس، وخلطوا الشعر بالموسيقى في المقاهي العربية، هناك حيث اعتاد المستمعون الجلوس على مقاعد القصب المنخفضة ويدخنون النارجيلة. وكان الجميع يذهبون لمشاهدة فرقة جورج أبيض المصرية عندما كانت تأتي إلى القدس قبل الحرب العالمية الأولى. وكانت مقاهي المدينة القديمة وبوابة دمشق بمثابة مراكز ثقافية وترفيهية للعرب ولليهود على السواء. ولا شك أيضاً في أن مختلف الأغاني من الشعر العربي والموسيقى العربية وجدت طريقها إلى داخل «البيوتيم»، أي الأغاني والترانيم الدينية التي كان الرابيون ورؤساء فرق الإنشاد ينشدونها في ليالي الجمعة، في البيت وفي المعبد» (Alcalay 1993:109).

وقد انتهى المطاف بالكثير من يهود العالم العربى فى إسرائيل. وعند وصولهم يتم رش بعضهم بالمبيد الحشرى DDT، لكى يخلصوهم من «عربيتهم» (Alcalay 1993:37). وهذه ليست مبالغة، ولدى الكالاي صفحات كثيرة تصف ما حدث. وعلى الرغم من أن كتاب سويرسكى Israel The Oriental Majority لا يحمل الكثير من التواريخ، فإنه ما يزال أفضل تقديم لهذا الجانب الأقل شهرة من العملية التى قامت بها الصهيونية لتجميع الشعب اليهودى. ذلك أن اليهود القادمين من اليمن -إحدى أفقر وأقدم الجماعات اليهودية- كانوا «متوحشين وبرابرة»، ولكنهم على الأقل كانوا يعملون بشكل طبيعى وبلا خجل... وبدون أن يكون «مستر ماركس فى أدمغتهم»، على حد تعبير صحيفة صهيونية. (Alcalay 1993:43).

أبا إيبان، الدبلوماسى الإسرائيلى «المتحرر»، والمشهور، والباحث فى الدراسات الفارسية بجامعة كمبردج، قدم مرة شرحاً عن اليهود القادمين من العالم العربى. فقال: إن هناك خطراً حقيقياً من أن «المهاجرين ذوى الأصول العربية سوف يجبرون إسرائيل على أن تساوى مستواها الثقافى مع مستوى العالم المجاور لها» (Alcalay 1993:31). ولا عجب فى أن شالوم شترت، وهو إسرائيلى من اليهود العرب، قد كتب مرثية عنوانها «سجين صهيون» (Alcalay 1993:29).

أحياناً، فى بعض الأحيان فقط، يقوم إسرائيلى من أصول أوروبية بقول الحقيقة. وها هى لوفيا إياث:

«لقد خطفنا منهم الكنز الثمين الذى جلبوه معهم -اللغة العربية... لقد جعلنا من اللغة العربية والثقافة العربية شيئاً كريهاً وحقيقياً» (Cited Alcalay 1993:24-5).

وعلى مرّ السنين، كان بوسع قادة إسرائيل، الذين تساندهم بلايين الدولارات الأمريكية أن يضيفوا ميزات على الظروف المعيشية لليهود القادمين من البلاد العربية، بما يكفى لجعلهم يصبون جام غضبهم على الفلسطينيين فى قاع البناء الاجتماعى. ويكتب الكالاي:

«يمكن للإنسان أن يهتمهم بألحان فنان عربى مشهور للغاية مثل فريد الأطرش، أم كلثوم، محمد عبد الوهاب، دقيقة واحدة، ويقوم بعمل المستجوب الذى يصير فيه الموضوع الفلسطينى هدفاً لغضب فى غير محله فى الدقيقة التالية.

كل هذه هي طبعة الطبقة العاملة الإسرائيلية، وكل خطوة في كل من البناء الثقافي المهيمن، والاحتلال المستمر، تخضع للإغراء الجارف من قبل صناعة الصور الرسمية، وهو ما يؤدي فقط إلى المزيد من إخراس الذاكرة نفسها. . . .» (1993:254).

وماذا فعل حيال يعقوب يهوشع، الذي اقتبسنا من كتابه الذي يحمل عنوان *Childhood in Old Jerusalem*، وهو جزء من عمل في ستة مجلد؛ ذلك أن يهوشع الذي صار موظفا صهيونياً كبيراً «قد استطاع في صمت أن ينجز دور مدير القسم الإسلامي في وزارة الشؤون الدينية الإسرائيلية أثناء الفترة عندما كانت المؤسسات والآثار الإسلامية - والشواهد الإسلامية البارزة - محل تجاهل متظم، أو يتم الاستيلاء عليها أو تُنتهك» (Alcalay 1993:233).

وما يصدم جدا في هذه الخيانة الشيزوفرينية أنها تمضى في معظمها دونما تحد أو حتى تحقيق وتدقيق. بيد أن الكلاي لا يهتز له جفن من جراء هذا الوضع الكئيب. ولا يمكن للخيانة أن تأخذ معها معنى ذاكرة الطفولة. وعلى الرغم من صاحب هذه الذكريات، فإنها تبقى أحد «الأصوات الشاهدة في البرية» (Alcalay 1993:233).

والكلاي ثابت في تمرده ضد إخراس الذاكرة. ولم يزعم أبدا ما هو أكثر من أنه كان يجمع فريقاً من المعارضين العرب - اليهود، وهي أقلية ضئيلة. ولكن الكلاي في مهمة ثورية «للتهوية على تلك الشرارة من الأمل الآت من الماضي». وهو مؤمن ملهم بأنه في قول الحقيقة نستطيع على الأقل أن نغير العالم. وهو يجد الإلهام في أناس مثل شمعون باللاس، وهو يهودى عراقى، صار روائياً في إسرائيل، ويحكى الحقيقة. ويحتاج الأمر إلى شجاعة حقيقية للقول إنه فعل ذلك حقاً:

«إننى لم أنكر أبدا أصولى العربية أو اللغة العربية، على الرغم من أن تعليمى فرنسى أيضاً. لقد كانت الهوية العربية وما تزال جزءاً منى. . . . إننى عربى حمل هوية إسرائيلية، ولكنى لست أقل من أى عربى آخر فى عرويتى. . . .»

وأثناء حرب الخليج الأولى، عندما أطلق صدام حسين صواريخ سكود على إسرائيل، رفض باللاس أن يدين أولئك الفلسطينيين الذين أيدوا الهجوم العراقى. وكان هذا يعنى الانفصام عن حركة «السلام» الإسرائيلية: «بوسعى أن أفهم الفلسطينيين.

أولئك الذين كانوا يصفقون عندما سقطت الصواريخ على الإسرائيليين ، لقد فعلوا هذا بعد عشرات السنين من القهر . . . » (Alcalay 1993:243).

ومن الواضح أن الاختبار النهائي هو هذا العبور إلى جانب الفلسطيني . ترى من الذى سوف يتماثل مع محمود درويش شاعر فلسطين العظيم؟ إن قصيدته فى التضامن مع الانتفاضة الأولى سنة ١٩٨٧م سببت ضجة فى الصحافة الإسرائيلية والبرلمان الإسرائيلى . وهرع كثير ممن يسمون «اليسار» من الفنانين الإسرائيليين بحثاً عن غطاء . بيد أن قلائل منهم ، مثل الممثل يوسى شلواح أيدوه . قال : إنه ذهب إلى «الأدب العربى الفلسطينى بحثاً عن ثقافتى» (Alcalay 1993:231).

وربما يكون محمود درويش هو الشخص المحورى ، حيث ينبغى للشعر أن يسد الصدع السياسى . وهو يمكن أن يتماثل مع الفتى الانتحارى ، وفى قصيدته «حالة حصار» يقول الشهيد :

الشهيد يوضح لى : لم أفتش

وراء المدى

عن عذارى الخلود

فإنى أحب الحياة

على الأرض ، بين الصنوبر والتين

لكننى ما استطعت إليها سبيلاً

ففتشت عنها بأخر ما أملك ، الدم فى جسد اللازورد

ولكن محمود درويش يرى بشراً فى ملابس الجنود الإسرائيليين . وتبدو نزعتة «الإنسانية» أحياناً كما لو كانت نقصاً فى اليقظة والوعى .

(Mahmoud Darwish, Maya Jaggi's "Profile", Guardian, 6 June 2002)

وظنى هو أن محمود درويش كان سيوافق على الطريقة التى حل بها هذه المعضلة جوزيف سمبرون ، وهو مقاتل شيوعى سابق فى المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى ، وأحد الكتاب الكبار عن الهولوكوست . ففي روايته The Cattle Truck ،

الراوى الذى يحكى رواية سمبرون سجين فى طريقه إلى بوخينفالد، ويضفى على حراسه العسكريين صفة الإنسانية، مدركاً بالطريقة التى وضعت بها الإمبريالية والعسكرية الإنسان فى زى موحد.

وقد عاود سمبرون بحث العضلة فى سيرته الذاتية التى تحمل عنوان «Litrature on Life». وهو يصف قصة حقيقية من حركة المقاومة، عندما مرّ هو ورفيقه بجندى ألماني شاب كان جالساً على ضفة النهر مستمتعاً بالريف الفرنسى. وكان مع الألماني موتوسيكل وبنديقية آلية، ولم يكن لدى سمبرون أى شك فيما ينبغى عمله. ولكنه اندهش لبرهة عندما بدأ الجندي فجأة يغنى «فى صوت عميق محجب» أغنية La paloma. وكانت هذه أغنية مفضلة منذ أيام طفولة سمبرون. وقد جعلت الجندي بريشا على نحو ما: «بريشا ليس فقط من كونه وكُد ألمانيا تحت حكم هتلر... من أنه يجسد رغماً عنه القوة الباطشة للفاشية. ولكنه برئ أصلاً فى كامل وجوده... لقد كان ذلك عبثاً وكنت أعرف هذا...» (Semprun 1997:33,34) ومع هذا، وعلى الرغم من قلق رفيقه، كان عليه أن ينتظر حتى تنتهى الأغنية قبل أن يطلق عليه الرصاص ويرديه قتيلاً.

obeikandi.com

خاتمة

... من الرماد

الصهيونية هي المشكلة؛ وإزالتها هو الشرط الأساسى للسلام فى الشرق الأوسط. إنها الشرط الأساسى لمصالحة عربية - يهودية فى فلسطين. هذه هي الخاتمة الوحيدة الممكنة لهذا الكتاب. ولست بحاجة لإقناع القراء العرب بهذا؛ لأنه بالنسبة للأغلبية الساحقة من العرب هذه حقيقة لا تحتاج إلى برهان.

ومعظم الناس فى أوروبا وشمال أمريكا ليسوا مقتنعين. وعلى الرغم من أن قضية العدل للفلسطينيين مسموعة بصوت أعلى من ذى قبل، فإنه يبقى هناك اعتقاد باق أن هناك ما يبرر أيضا وجود دولة يهودية فى فلسطين، وأنه يمكن التوفيق بين الموقفين.

ولكن ذلك غير ممكن. وعلى الرغم من أن هناك أصوات قليلة للغاية من اليهود على استعداد لقول ما أقول، عندما يتحدثون بصوت عال، فإنهم يصبحون حليفاً قوياً بشكل فريد للفلسطينيين فى أوروبا وأمريكا.

وكتاب *Out of the Ashes*، الذى كتبه لاهوتى يهودى أمريكى، هو مارك إيليس، يلفت النظر من حيث أن إيليس يخلص أيضا إلى أن المشكلة هي الصهيونية. بيد أن نقطة انطلاقه ليست هي المجادلات التى تقوم على أرضية منطلق اليسار العلمانى، بل نقطة الانطلاق عنده هي الديانة اليهودية نفسها. ولا يمكن أن نستبعد مارك إيليس باعتباره شخصية هامشية. وثمة كتاب سبق هذا عن الحاجة للاهوت «تحرير» يهودى، تلقى خطاب شكر بمبادرة من الدكتور جوناثان ساكس، الذى كان آنذاك رئيس الكلية اليهودية *Jew's College*، وهو الآن الحاخام الأكبر فى بريطانيا (Jewish Chronicle, 7 February 2003).

وعندما تحدث ساكس نفسه علناً ضد إسرائيل، بل طلب مساواة فى الأديان بين الإسلام والمسيحية واليهودية، تم إسكاته تحت وطأة اليد الثقيلة الباطشة للأورثوذكسية

اليهودية في بريطانيا. وبالنسبة لإيليس كان هذا عرضاً من أعراض «حرب الضمير الأهلية» اليهودية (2002:47) وهي معركة تدور تحت السطح في الجماعات اليهودية. أما إيليس نفسه فلا يهادن ويرى في الصهيونية تهديداً لا يقتصر على الفلسطينيين، وإنما ينسحب إلى مستقبل اليهودية نفسها.

وثمة نكهة لكتاباتة تتبدى واضحة على أول صفحة من الكتاب، حيث يرى مدافع المروحيات الإسرائيلية اليوم تحدد الحياة اليهودية:

«لدى رؤيا باستبدال لفائف التوراة في تابوت العهد الذي يجعل بؤرة اهتمام اليهود على الرب والعدل والسلام، بمدافع المروحيات التي تتحدث عن القوة والبطش دونما أخلاق أو قيم. ماذا نفعل. إننا نتعبد» (2002:1).

وإيرينا كلبشيتز واحدة من الأصوات اليهودية العظيمة التي تتحدث في كتاب إيليس. وكان والدها مايكل كلبشيتز ناشطاً في العصبة الاشتراكية اليهودية، وواحداً من أشجع الأعضاء في منظمة المحاربين اليهود في جيتو وارسو. وفي أوائل سنة 1943م، هرب مايكل إيرينا وأمها، كما اشتغل هو أيضاً بتدريب الأسلحة والمواد التي استخدمت في هبة الجيتو ضد النازي فيما بعد. وفي اليوم الثاني من الهبة قُتل مايكل، بينما كان يحمي مقاتلي الجيتو الآخرين.

وقد وقفت إيرينا كلبشيتز حياتها على الحفاظ على ذكرى أبيها والحفاظ على المبادئ التي كان يحارب في سبيلها حية. ولم تتردد في الربط بين هذه الذكرى والمآزق الفلسطينية. وتقول إنه يجب على الفلسطينيين أن يشعروا «بالغضب الوحشي» الذي كان يتاب محاربي الجيتو عندما يرون تمزيق الحياة الفلسطينية:

«إن الهيستيريا التي تملك أما أطلق عليها الرصاص، وعائلة مذهولة أمام منزلها الذي أزيل أو تم تدميره، والعائلة التي تفرق شملها، وتم ترحيلها؛ والقوانين التعسفية أو الظالمة التي تأمر بإغلاق الدكاكين والمدارس وفتحها، وإهانة الناس ذوى الثقافة الغربية والتي يحكم بأنها الأدنى، شعب ترك في العراء، دونما وطن أو جنسية، شعب يعيش تحت الحكم العسكري» (Ellis 2002:29).

ويُضيف إيليس نفسه أن صورة الهبة التي جرت في جيتو وارسو، ترمز إلى الكبرياء والانتهاك الذي حاق بالحياة اليهودية «تتممه الانتفاضة الفلسطينية».

وفي إسرائيل أيضا، كشف عدد قليل جداً من اليهود الإسرائيليين الغطاء. ولكن مرة أخرى، فإن أولئك الذين يملكون المساعدة، يلبورون منظورا يجعل من الممكن التنبؤ بتحالف حقيقي مع الفلسطينيين.

وفي تسعينيات القرن العشرين، صارت مجموعة من المثقفين الإسرائيليين مرتبطين بما «بعد الصهيونية»^(١). وعلى الرغم من أنه ما يزال هناك بعض من الافتقار إلى الوضوح بشأن هذا المفهوم، فإنه يشجع بعض الكتاب على تحدى «حكاية» الصهيونية المهيمنة، وكذلك على أن يبدأوا في تخيل حياة يهودية في فلسطين بدون دولة صهيونية. وعلى الرغم من أن هؤلاء المفكرين قلة في عددهم، فإنهم في بعض الأوقات يبدون مصدر تهديد حقيقي، يشيرون إلى انعدام أساسى للأمان داخل الحركة الصهيونية، على الرغم من غطرستها وعنفها الخائق. ومن هنا منعت حكومة شارون كتاب تاريخ مدرسياً يدرس في الصف التاسع؛ لأنه «ذو اتجاه ما بعد الصهيونية» وليس وطنيا بالقدر الكافى (Nimni 2003:1).

وأقوى الأصوات، سواء ارتبطت بهذا الاتجاه أو تزاملت معه، هم العدد الضئيل من الشخصيات الرئيسية السابقة فى المؤسسة الصهيونية للعمل، الذين يخافون الآن حقاً من الوحش فرانكشتاين الذين ساعدوا هم أنفسهم على خلقه. إن جذورهم العميقة الأولى فى المشروع الصهيونى هى التى تجعلهم ينفصلون بهذه الحدة.

وربما لم يكن هذا ما قصدوه، بيد أن أكبر إسهاماتهم قد تكون مساعدة الآخرين منا فى تكثيف حرب الدعاية ضد الصهيونية فى أوروبا وأمريكا: وهذا هو إسهامنا فى تحرير فلسطين.

وما يلى مستخرجات قصيرة من مقالات، كتبها اثنان من السياسيين الصهاينة فى حزب العمل سابقا، وهى مقالات مذهلة بدرجة أكبر فى أصولها.

أفراهام بورج، ظل لفترة طويلة من كبار ساسة حزب العمل الإسرائيلى. وكان رئيس الكنيست الإسرائيلى من ١٩٩٩م إلى ٢٠٠٣م:

«تستند الأمة الإسرائيلىة اليوم على دعائم من الفساد وعلى أساسات من القهر والظلم. وعلى هذا فإن نهاية المشروع الصهيونى على عتبة بابنا...»

إن يهود الشتات الذين تمثل إسرائيل لهويتهم العمود الفقري، عليهم أن يهتموا وأن يتحدثوا بصوت عال...

كان المفروض أن نكون نوراً للأمم... وفضلنا. ونحول الأمر إلى أن تضاعف نضال ألفى سنة من أجل البقاء اليهودي إلى دولة من المستوطنات، تديرها عصابة لا أخلاق لها من الخارجين على القانون.

من المريح جدا أن تكون صهيونيا في مستوطنات الضفة الغربية مثل بيت إيل وأورفا. والفضاء الذي تحدث عنه الكتاب المقدس ساحر. ويمكن أن تحمق خلال النباتات المتسلقة ولا ترى الاحتلال. وبالسفر على الطرق السريعة التي تبعد فقط نصف ميل غرب حواجز الطرق الفلسطينية، يصعب إدراك التجربة المهنية للعرب الذين يعاملون باحتقار، والذين عليهم أن يرحلوا ساعات الطرق الوعرة، المليئة بالحواجز التي خصصت لهم... راقب هذه اللحظة جيدا: البنية الفوقية للصهيونية تنهار بالفعل مثل صالة أفراح رخيصة بالقدس. ولا يستمر في الرقص في الطابق الأعلى على حين تنهار الأعمدة في الأسفل سوى الرجال المجانين...

إن إسرائيل وقد توقفت عن الاهتمام بأطفال الفلسطينيين، لا يجب أن تصيبيها الدهشة عندما يأتون وقد اغتسلوا بالكراهية ويفجرون أنفسهم في مراكز الهروب الإسرائيلي من الواقع. إنهم يسلمون أنفسهم إلى الله في الأماكن التي نجد فيها الترفيه والتسلية، لأن حياتهم عبارة عن عذاب. إنهم يريقون دماءهم بأنفسهم في مطاعمنا لكي يقضوا على شهيتنا لأنهم لديهم أطفال وآباء جوعى ومهانين في منازلهم. إننا يمكن أن نقتل ألف من قادة المجموعات يوميا دون أن نحل شيئا، لأن القادة يصعدون من أسفل - من آبار الكراهية والغضب من «البنية التحتية» للظلم والفساد الأخلاقي».

وقد نشرت أصلاً في جريدة ידיעות أحروروت الإسرائيلية - 15 (Guardian, 15 September 2003).

ومنون بنقنستي نائب عمدة سابق في القدس (انظر الفصل الخامس). وهو هنا يصف رفضه «للحكاية الصهيونية». والقصة الحقيقية هي:

«قصة الأهالي الذين يشعرون أن الناس الذين جاءوا من وراء البحر قد لوثوا

عاداتهم الطبيعية وجردهم من أملاكهم . وبالنسبة لى كان هذا اكتشافاً مذهلاً . لقد جاء بعد كامب ديفيد، بعد أذى سنة ٢٠٠٠ م .

ومثلما فهم حكام جنوب أفريقيا تماماً - فى لحظة بعينها - أنه لا يوجد خيار سوى تقويض نظامهم الحاكم، كذلك يتعين على المؤسسة الإسرائيلية أن تفهم أنه ليس ممكناً فرض مفاهيم الهيمنة لديها على ثلاثة ملايين ونصف مليون فلسطينى فى الضفة الغربية وغزة، ومليون ومائتى ألف فلسطينى مواطنين فى إسرائيل . وما يجب علينا أن نفعله هو محاولة الوصول إلى موقف المساواة الشخصية والجماعية داخل إطار نظام حكم واحد شامل فى جميع أنحاء البلاد .

وحتى الآن ليس لدى اقتراح متماسك . وليست لدى خطة عمل . ولكن اتجاه الفكر واضح . إن النموذج الجديد يجد شرعيته فى الواقع الحقيقى . . . إن تنفيذ حكومة فيدرالية سوف يضرب نوعاً من التوازن بين المجموعتين الوطنيتين . ولن يزعجنى إذا ما كانت المساواة هى أساس هذا التوازن : واحدة بواحدة .

«وأعترف بوجود طبقة عاطفية هنا : هى هويتى الخاصة . إننى فى السبعين من عمري الآن، ولى الحق فى إبداء الرأى والمشورة . وقد كنت جزءاً من كل ما هو هنا : حركة الشباب والجيش والكيوتزات والسياسة . أنا ملح الأرض، ولست أخجل من ذلك، إننى شخص إسرائيلى فخور مثل زهرة النوار . ولن أدع أحداً يدعونى خائناً . لن أدع أحداً يقول : إننى لست من هنا - بما فى ذلك الفلسطينيين - إننى كما أراد أبى أن أكون بالضبط : من الأهالى . لقد أراد لى أن أتمو مثل شجرة من تراب الأرض . أرادنى أن أكون جزءاً طبيعياً من الفضاء . وربما يكون قد نجح : إننى ابن واحد من الأهالى . بيد أن هذه بلاد كان فيها العرب على الدوام . هذه بلاد يكون العرب فيها هم المشهد، هم الأهالى . ولهذا لا أخاف منهم .

إننى لا أتصور نفسى أعيش هنا بدونهم، وفى نظرى إنه بدون العرب تكون هذه الأرض أرضاً عاقراً . «هذه هى نقطة الاختلاف التى تفرقنى عن أصدقائى فى اليسار؛ لأننى حقاً ابن من أهل البلاد، أنجبته أسرة من المهاجرين، وقد انجذبت إلى الثقافة العربية واللغة العربية؛ لأنها هنا . إنها الأرض . . . أحب كل شىء ينبثق من هذه التربة . على حين أن اليمين - بالتأكيد - يكره العرب، ولكن اليسار يكرههم

أيضا . إن العرب يضايقونهم - إنهم يعقدون الأمور . إن الموضوع يولد أسئلة أخلاقية ، وهذه بدورها تزرع القلق الثقافى .

هذا هو السبب فى أن اليسار يريد هذا الحائط الرهيب ، وهو فى نظرى ضد الجغرافيا ، وضد التاريخ ، وضد الإنسانية . هذا هو السبب فى أن اليسار يريد الاختباء وراء هذا الحائط الذى هو اغتصاب للأرض .

ولهذا أظن أن الوقت قد حان لإعلان أن الثورة الصهيونية قد انتهت . وربما يجب أن يتم هذا بشكل رسمى ، إلى جانب إقرار تاريخ لإلغاء قانون العودة . ينبغى أن نبدأ التفكير بشكل مختلف ، وتحدث على نحو مختلف . . . لأننا فى النهاية سنصير أقلية يهودية هنا» (Ha'aretz, 8 August 2003) .

إن إلغاء قانون العودة الذى يدعو إليه بنقستى هنا ، سوف يؤدى حقاً إلى الإطاحة بدعامة مهمة من دعائم الصهيونية ، التى زعمت تاريخياً لأى يهودى فى أى جزء من العالم هذا الحق . وفى مكان آخر (الفصل الخامس) وصف بدقة طرد اللاجئين الفلسطينيين العرب سنة ١٩٤٨ م بأنه «تطهير عرقى» . إن حقهم فى العودة هو أيضا شرط أساسى لمثل هذه التسوية .

ومقارنة بنقستى بدولة الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا صائب . فهناك تم إدراك حقيقة مهمة جداً فى الوقت المناسب : البنية المستبدة للدولة العنصرية يجب أن تتفكك ، قبل أن تعصف بها ثورة دموية .

الهوامش

الفصل الأول

الكتاب المقدس.. هو مصدر ملكيتنا

١- عام ١٩٣٦م كان بداية الانتفاضة الفلسطينية العربية ضد الحكم البريطاني والمستوطنات الاستعمارية الصهيونية . الحكومة البريطانية التي كانت تشعر وقتها بإحباط متزايد قامت بإرسال اللورد بييل على رأس هيئة تحقيق ملكية إلى فلسطين للبحث عن سبل لحل الصراع . وستقوم بتناول انتفاضة عام ١٩٣٦م بالتفصيل فى الفصل السابع .

٢- كان لافون وزيراً إسرائيلياً فى الخمسينيات من القرن العشرين ، وربما كان مسئولاً أو غير مسئول عن فضيحة تورط فيها شباب مصرى يهودى قامت المخابرات الإسرائيلية بتجنيدهم ليقوموا بزرع القنابل فى مصر ، وقد تم إعدام ثلاثة من المصريين . أما لافون الذى أصر على براءته فأجبر على الاستقالة من منصبه بشكل مخز . وفى عام ١٩٦٠م قدم لافون طلباً للرئيس الوزراء بن جوريون بفتح التحقيق من جديد فى القضية بحجة وجود أدلة جديدة . وفى أثناء التحقيقات التى تبعت ذلك ألح لافون إلى تورط وزارة الدفاع فى التستر على بعض المتورطين ومن بينهم أتباع لبن جوريون . ومع ذلك لم تصل التحقيقات فى قضية لافون إلى نتائج مرضية وإن كانت بالفعل قد تسببت فى تحطيم حياة بن جوريون السياسية .

٣- مارتن جيلبرت هنا يقتبس من شباتى تيفيث كاتب مذكرات بن جوريون الذى يتعاطف معه بشكل كبير .

٤- إيجال يادن رئيس قوات الدفاع الإسرائيلية وأحد أشهر علماء الآثار فى البلاد شرح مرة أنه بالنسبة للشباب الإسرائيليين أصبح «الإيمان بالتاريخ» بديلاً عن «الإيمان الدينى» . ولكن هذا التمييز ينهار تماماً إذا ما قمنا بالتعامل مع العهد القديم بشكل حرفى ، أو حتى إذا ما أخذنا بعض المقاطع منه بشكل حرفى . نادى أبو حاج واحدة من الفلسطينيين القلائل الذين كتبوا عن سوء استخدام الصهيونية لعلم الآثار تناولت كتابات يادن بالبحث (Abu Al-Haj) (١ : ٢٠٠١م) ولسوء الحظ قامت أبو الحاج بنشر إنتاجها قبل وقت قصير جداً من الانفجار الداخلى الذى شهده علم الآثار الإسرائيلى .

٥- للدفاع عن التناول العلمى للتاريخ (محاولة فهم التاريخ من منظور علمى) انظر إيفانز (1997).

٦- هذا الطرح مبنى بشكل أساسى على الدور الذى لعبه ناثان، نبى محكمة داود. داود يعترف بخطاياها لناثان ولكن هل كان ناثان نبياً عبرياً أم مستشاراً للملك محلى آخر يتمتع بدرجة أعلى من الأخلاق والعدل عن تلك التى يتمتع بها داود؟ (Armstrong 1996: 40).

الفكرة هنا هى أن المعايير الوثنية للعدل اختلفت من شيخ قبيلة إلى أخرى. وداود كان مجرد شيخ قبيلة ولم يكن يتمتع بتميز خاص حتى وفقاً لمقاييس العصر الذى كان يحيا فيه.

٧- تستطيع الحصول على شريط الفيديو والكتاب المبنى على السلسلة التليفزيونية، انظر ستجريس (٢٠٠١م) السلسلة التليفزيونية التى قدمها جون مكارثى يمكن الحصول عليها من CTVC, email: library@CTVC.co.uk.

٨- يوفر كتاب فينكلستاين وسيلبرمان أحدث رصد للموضوع حتى الآن.

٩- يوجد أيضاً دعاية قوية مناهضة للملكية وهى كتب صامويل. وأريد هنا أن أشكر موسى ماكوثر على ملاحظته العميقة التالية: «يحتمل أن تكون هذه هى أفضل أسفار العهد القديم جمالاً وإثارة. ولا شك أن من كتبوها كانوا رجال دين مناهضين للملكية، وكلهم رفض رفضاً حاداً الممارسات الملكية، ولا يفوتون فرصة دون أن ينتقدوا فيها داود الذى يروونه شريراً حقيقياً».

الفصل الثانى

نقى اليهود... هو خاصيتهم المميزة

١- كتاب زيروباقل رائع وحساس، ولكنه أيضاً، وبلاشفقة، يكشف العديد من التشوهات الصهيونية للتاريخ اليهودى القديم. فانظر على سبيل المثال لتحليلها الناقد للطريقة التى حولت الصهيونية إلى أسطورة كل من الانتحار الجماعى فى مسادا بعد سقوط المعبد الثانى فى القدس، أو بعد ذلك التمرد اليهودى على الرومان بقيادة القائد الأسطورى بار كوخبا. فاز الكتاب فى عام ١٩٩٦م بجائزة سالو بارون المرموقة التى تمنحها الأكاديمية الأمريكية للبحوث اليهودية. أود أن أشكر ديفيد سيزارنى البروفيسور بجامعة ساوثهامتون لأنه لفت نظرى لهذا الكتاب.

٢- لسوء الحظ من غير الممكن أن نعطى فى هذا الفصل لتلك الشخصية غير العادية المثيرة

للجدل، والتي تعرف بيوسيفوس، ما تستحقه من اهتمام. أفضل دراسة له هي دراسة تيسا راجاك (١٩٨٣م). ولأن يوسيفوس شخصية لا يمكن إلى حد بعيد الاعتماد عليها، فإن استخدامي له في هذا الفصل يعتمد حصرياً على التفسيرات الحديثة الجادة المبينة على دراسات عميقة.

٣- حكام الإمبراطورية الفارسية أعادوا القيادة اليهودية الدينية إلى القدس بعد أن سيطروا على بابل. وكان الحاكم السابق قد دمر المركز الروحي السابق لليهود في القدس وقام بعد ذلك بنفى اليهود أو على الأقل قادتهم الدينيين إلى بابل. وهناك بعض الحقائق التاريخية في هذه الحكاية المعروفة من حكايات الكتاب المقدس. ومن أجل الحصول على مقدمة لتحليل علماني انظر مقدمة كتاب بواز أفيرون (1995: 15-16) وهو كاتب إسرائيلي تقدمي غير صهيوني. انظر أيضاً الملاحظة رقم ١٥ بعد ذلك. وللتعرف على رؤية للتاريخ اليهودي تعتبر نصف علمية ونصف محطمة للقيود الدينية انظر كتاب *Jewish History, Jewish Religion* للكاتب الإسرائيلي الراحل شاحاك الذي كان ناشطاً إسرائيلياً في مجال حقوق الإنسان وكان معادياً للصهيونية.

٤- تشيريكوثر وفاكس قاما بشكل مشترك بتحرير مجموعة مذهلة من البرديات تم اكتشافها في الصحراء المصرية وعرفت باسم *Corpus Papyrorum Judaicarum (CPJ)*. وهذه كانت بقايا مستندات رسمية وشبه رسمية قانونية تعكس قوانين الحياة الاجتماعية في مصر تحت حكم البطالمة اليونان ثم بعد ذلك الحكم الروماني.

٥- هذا مشابه بشكل مذهل للجدل حول أرض الوطن، واليهود في مصر، الذي دار بعد ذلك بألف سنة. انظر الفصل الرابع.

٦- اشتكى بن جوريون لدويتشر من اليهود الكوزموبوليتانيين عديمي الجذور. (Deutscher 1968: 92).

٧- للاطلاع على تحليل مختصر ولكنه رائع في وضوحه حول كيف أن اليهودية كادت أن تصبح دين العامة في الإمبراطورية الرومانية، متضمناً وصف لتدخل القديس بولس، انظر كتاب هارمن (1999: Chapter 6).

٨- هذا النقش الرائع يعيدنا إلى النقطة التي تناولناها في نهاية الفصل الأول حول كيف أن السامرة اعتبرت نفسها إسرائيل الحقيقية.

٩- وفقاً لشين كوهين فإن «يوسيفوس أراد أن يعترف إلعازر بشكل علني بأنه هو وأتباعه الذين أشعلوا الحرب قد أخطأوا وأنهم الآن يعاقبون من الرب بسبب خطاياهم» (Cohen 1983: 396) هذه المقالة كتبها كوهين في Vermes and Neusner عام ١٩٨٣ م . ويجادل كوهين هنا بأن يوسيفوس استخدم الخطبة ليشير إلى روما أن المتمردين اليهود كانوا على خطأ حين أشعلوا التمرد، وهو موقف يتلاءم مع شخصية يوسيفوس عندما استقر ليكتب تاريخه، وسعى إلى التقرب من روما بعدما تم سحق التمرد . وكما يقول راجاك بشكل أكثر رقة، فإن «مجرد إعادة توجيه خطابه وتحويله إلى مدح أبناء بلده (في مسادا)، تلك المعادلة الموالية للفلاقيين والرومان تأتي مليئة بالتناقضات (Rajak 1983: 221)، وللإطلاع على تفسير حديث مقروء شيق، وإن كان مضللاً، بعض الشيء للتمرد اليهودي ضد الرومان، انظر فولكنر (٢٠٠٢) ونقدي الودود له في دورية International Socialism العدد رقم ٩٨ وقد قام فولكنر بالهد على في نفس الدورية العدد رقم (١٠١) .

١٠- إحدى لفائف البحر الميت التي تم اكتشافها في موقع قمران في القرن العشرين . لفائف البحر الميت هي واحدة من أهم المصادر التاريخية حول اليهودية القديمة .

١١- تمرد الشتات في عام ١١٧ حطم المجتمعات اليهودية في مصر والقورينية (ليبيا اليوم) . ويوجد الكثير من الإشارات إلى ذلك في كتاب باركلي (١٩٩٦م) .

١٢- لسوء الحظ فإن المساحة المتاحة لا تقف دون مناقشة هذا التمرد غير المفهوم بشكل مفصل . للإطلاع على نقد ساخر للمحاولة الصهيونية الحديثة لدمج بار كوخبا انظر زيروباقل (1995: Chapters 4, 7 and 10) .

١٣- «وجدير بالملاحظة هنا أن المثقفين اليهود كانوا عمالاً حرفيين» (Goodman: (1983:93) .

١٤- على ما يبدو فإن الدليل يأتي بشكل أساسي من منطقة الحدود مع الجليل (Goodman: (1983: 41-53) .

١٥- المقعد التعليمي اليهودي في بابل في ذلك الوقت، وتحت رعاية الممالك الفارسية المتجددة، وعلى الرغم من أننا لا نعرف الكثير عنه، إلا أنه في الحقيقة أهم لتطور اليهودية في الحقبة الزمنية المتداولة . ينظر إلى التلمود البابلي على أنه أهم بكثير من التلمود الفلسطيني . ولا يمكن بأي منطق أن نعتبر أن هذه المجتمعات اليهودية، التي عاشت تحت الحكم الفارسي، كانت تعيش في المنفى . الحقيقة أنهم يحسبون عمر النفي الديني من زمن

نبوخذنصر (انظر ملاحظة رقم ٣) ولكن أغلب هؤلاء اليهود لم يتجهوا صوب القدس بعد أن أعاد لها القرس دلالتها الدينية. أبا إيمان، السياسى الصهيونى الذى أشرنا إليه فى الفصل الأول، كان أيضا عالما فى الدراسات الفارسية. وحتى إيمان يستنتج أن اليهود عاشوا فى منطقة بابل «دون انقطاع» (Urban 1984: 101) لفترة أطول من خمسمائة سنة قبل النفى! وسيتناول الفصل العاشر قصة اليهود فى بابل بمزيد من التفصيل.

الفصل الثالث

ثمانية عشر قرنا من المعاناة اليهودية

- ١- كيرليباخ (١٩٧٨م) على سبيل المثال، خصص كتابه فى محاولة إظهار وجود ما يربط بين مارتن لوتر وكارل ماركس، «اليهوديين الكارهين لأنفسهما»، وبين أدولف هتلر.
- ٢- البروفيسور ماكسيم راديسون نشر مخطوط ليون عن المسألة اليهودية فى جامعة السوربون عام ١٩٦٨ م.
- ٣- انظر هالفى (1987: 93-102) من أجل الاطلاع على تناول مثير لتحولات الخزر وتعليق على ادعاءات آرثر كويستلر على انتشار التحول لليهودية فى ذلك الوقت.
- ٤- انظر الدورية السنوية Studies in Polish Jewry ، التى يحررها أنطونى پولونسكى. ووفقا لأحد الحكماء اليهود «فإن سبب تسمية بولندا بهذا الاسم هو أنه يأتى من كلمة Polin، التى تأتى من poh lin بالعبرية والتى تعنى «هنا سوف ترسون».
- ٥- وهو الذى صدم أتباعه بتحويله إلى الدين الإسلامى.

الفصل الرابع

«نحن، اليهود، هم، العرب» (١)

رسالة من معبد يهودى بالقاهرة منذ ألف سنة

- ١- من المفهوم أن جويتن مشغول بالبحث التفصيلى فى التفاعلات الداخلية للمجتمع اليهودى من الناحية الدينية والاجتماعية، بالإضافة إلى علاقة اليهود بالإطار السياسى والاقتصادى والثقافى الإسلامى الأوسع. والتركيز هنا وربما بشكل حصرى على الجانب الثانى.

٢- انظر تعليقات إدوارد سعيد على لويس (١٩٩٥م).

٣- المجتمع الدينى القانونى قد يكون تعريفاً أفضل إذا ما وضعنا فى اعتبارنا فكرة الأمة المتصلة بشدة بالعقلية الحديثة . وأنا ممتن لفيل مارفلت لهذه الملاحظة .

الفصل الخامس

«أرض بلا شعب ...»

١- كتاب المسألة الإسرائيلية الفلسطينية (١٩٩٩م) الذى حرره إيلن باهى ساعد على كسر الثلج الذى يغطى هذا الموضوع .

٢- إن تقديم تاريخ دقيق للفلاحين الذين لا يتركون آثاراً مكتوبة عن حياتهم هو أمر شديد الصعوبة . وتعوض دراسة دومانى الرائعة هذه المشكلة من خلال النظر فى المصادر المحلية ، مثل سجلات المحكمة الشرعية الإسلامية والمجلس الاستشارى فى نابلس ، التى كانت تتضمن عرائض الفلاحين وأوراق التجار العائلية الخاصة .

٣- هذا لا يعنى أن الفلاحين الفلسطينيين فى نابلس هم من نسل السامريين . قد يكون بعضهم كذلك ، ولكن علينا أن نتذكر أنه ، كما بين الفصل الأول ، كيف كانت الثقافة الكنعانية قوية ، وهو ما يعنى أن الكثير من الفلاحين قاوموا انتشار اليهودية لأسباب مختلفة .

٤- كان الموقف الرسمى هو أن الإمبراطورية العثمانية كانت تملك معظم الأرض ، بينما يدفع الفلاحون ضريبة لاستخدام الأرض . ولكنهم كانوا يمارسون ما يعرف بحق الانتفاع ، وهو ما يعنى أنه طالما أن الأرض لم تترك بغير زراعة لمدة ثلاث سنوات فإنها تعتبر ملكاً لهم : وبالفعل كانوا يفعلون ذلك ، فقد كانوا يقومون بشراء وبيع الأراضى ، وإن كانوا فى أغلب الأوقات وبسبب الديون المتراكمة يتجهون للبيع .

٥- عدم وجود مساحة كافية يمنعنا من مناقشة مصير صناعة القطن الفلسطينية التى يبلغ عمرها أكثر من ألف عام ، وازدهرت بشكل كبير ، ثم انتكست فى منتصف القرن التاسع عشر . وللمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر دومانى (١٩٩٥م) فصل «نسيج وتجارة القطن» .

٦- رشيد الخالدى هو عضو فى عائلة معروفة من وجهاء القدس . وعمدة القدس الأول كان من نفس العائلة . وكان رشيد مستشاراً للوفد الفلسطينى فى مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١م .

تعلم هذا الجيل من المثقفين فى المدارس الثانوية التى أنشئت فى كل مكان بالإمبراطورية العثمانية، فى الجزء الأول من القرن العشرين. ولم تستطع السلطات العثمانية أن تضاهى الإقبال المتزايد على التعليم الثانوى، ولهذا ازدهرت العديد من المدارس الخاصة. وكانت هذه المدارس متواضعة فى مظهرها وكانت تعلم الحساب والعلوم واللغات الأجنبية، بالإضافة إلى حب اللغة العربية والتاريخ العربى. واحدة من أشهر هذه المدارس فى القدس كانت تقوم بشكل متعمد بجمع أبناء الأديان المختلفة، بينما أبهرت مدرسة أخرى المحرر الفلسطينى لصحيفة قاهرية؛ وذلك لأنها كانت على استعداد للتنبه ضد مخاطر الصهيونية. وكتب المحرر: إن المدرسة كانت «حجر أساس لبناء مستقبل فلسطين». هذه المدارس كانت بمثابة بوقنة صيغت فيها الهوية القومية الفلسطينية (Khalidi 1997: 46-53).

الفصل السادس

«... لشعب بلا أرض»

١- «أناس بلا جذور فى البنية الاجتماعية... بلا وظيفة... باعة متجولون... رجال نحيفة بملابس مهلهلة، أناس يكسبون قوت يومهم من توفيق حالات الزواج وتنظيم الأفراح، مقابل الحصول على نسبة من المهر» (Deutsher 1968: 62).

٢- منحة جوناثان فرانكل الدراسية المعترف بها على نطاق واسع، توفر التوازن المفقود فى علم كتابة التاريخ الصهيونى.

٣- فى الصناعات الهامشية، لعب العمال الذين جاءوا من أقليات عرقية والذين ناضلوا من أجل الحصول على حقوقهم فى أحيان كثيرة دوراً لا يتناسب مع حجمهم فى توجيه الغضب السياسى المتصاعد فى اتجاه تقدمى. ففي عام ١٩٧٧م كان من حسن حظى أننى كنت مراسل صحيفة العامل الاشتراكى لتغطية الإضراب الذى قامت به العاملات الآسيويات فى مصنع جرانويك الصغير فى شمال لندن. تمكن الإضراب من كسب انتباه كل الحركة النقابية والعمالية فى بريطانيا، وقام آرثر سكارجيل ممثل عمال المناجم فى يورك شاير بزيارتهم، وكذلك فعل وزراء فى حكومة حزب العمال من بينهم شيرلى ويليامز. وكان الإضراب يمثل كلاً من الدفاع عن الحقوق النقابية والتضامن بين العاملات البيض والآسيويات، فى وقت كانت الجبهة الوطنية العنصرية تبرز نجاحات ملحوظة على الصعيد الانتخابى فى المناطق العمالية للبيض فقط.

٤- تروتسكى بالطبع كان يهودياً، وهذا لم يقف دون انتخابه رئيساً لسوفييت العمال فى سانت بطرسبرج .

٥- لم يتعاف البوند تماما بعد ١٩٠٥م وعلى الأقل لم يرجع إلى قوته السابقة بأى صورة . فرغم أن عملية بناء الحزب بدأت ببطء فى عام ١٩١٠م، إلا «أن الأمور لم تعد كما كانت . فالبوند أصبح الآن يواجه منافسة من حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الراديكالى _ من المناشقة والبلاشفة _ والذى طور من نشاطه بين العمال اليهود . وبشكل عام نجحت الأحزاب الاشتراكية الروسية فى مقاومة الأزمة أفضل من البوند» (Weinstock 1984: 223) .

لمعرفة المزيد عن تاريخ الحركة العمالية اليهودية فى القرن العشرين، انظر ناان واينستوك (1984) Le Pain de misere, histoire du mouvement ouvrier juif en Europe وهو متوافر فقط باللغة الفرنسية . وأنا ممتن لسابى سيجال لأنه قام بترجمة هذه الفقرة من الكتاب .

٦- واينستوك (١٩٧٩م)، وللأسف نفدت طبعات الكتاب الذى يظل واحدا من أفضل عمليات التأريخ الماركسية للاستيطان الصهيونى فى فلسطين .

٧- يتذكر تونى كليف مقهى يهودى فى تل أبيب هوجم وتحطم تقريبا فقط بسبب شائعة تقول إن هناك عربى يعمل فى مطبخه (8) (Cliff 2000) .

٨- هذه كلمات كارل كاوتسكى الذى حمل تراث أفكار ماركس مباشرة بعد رحيل فردريك أنجيلز شريك ماركس طوال مشوار حياته .

٩- كتاب بيت حالامى (١٩٩٢م) مصدر جيد بشكل خاص فى عرض قصة نجاح اليهود فى بريطانيا .

الفصل السابع

هل هى إسرائيل الصغيرة الجسورة ؟

أم محمية القوة العظمى؟ (١)

بريطانيا والمستعمرة الصهيونية فى فلسطين

١- مقتبس من بول فوتر (1980:18) روبرت ستيوارت فايكونت كاسلرياه كان وزير حرب فى عامى ١٨٠٦-١٨٠٧م و ١٨٠٧-١٨٠٩م ثم وزيراً للخارجية عام ١٨١٢م . چون سكوف فايكونت أول ألدون كان رئيسا لمجلس اللوردات . هنرى أدينجتون فايكونت أول

الدون، كان رئيساً لمجلس اللوردات. هنرى أدنجتون فايكونت أول سيدموث، كان رئيساً للوزراء فى الفترة ما بين ١٨٠١ و ١٨٠٤م ووزيراً للداخلية بين عامى ١٨١٢ و ١٨٢١م .

٢- «نفاق ورياء كنفاق التماسيح» . . ويا لها من شجرة ممتدة الفروع على المستقبل . تذكر ديفيد بلانكت وزير الداخلية البريطانى وهو يستعير كلمة تاتشر الساحرة «يُغرقون» وهو يشتكى فى عام ٢٠٠٣م من اللاجئين السياسيين ، وفى الوقت نفسه يصر على أن بريطانيا ستحافظ على التزاماتها تجاه طالبى اللجوء السياسى .

٣- يرصد ليقين (1992 a) سلوك الصهاينة الرهيب أثناء محاولتهم فرض أنفسهم على قمة المجتمع اليهودى فى بريطانيا فى دراسة عميقة عن واحد من الشخصيات غير الصهيونية البارزة فى هذه الفترة والذى نسى بشكل أو بآخر الآن وهو لوسيان وولف .

٤- الصهيونية بلا شك هى السبب الرئيسى وراء «معاداة السامية» فى العالم العربى والإسلامى ، وسوف أعود إلى هذه النقطة فى الفصل الأخير .

٥- فى الفصل الخامس كنت ناقداً لاذعاً لكتاب Origins of Zionism لڤيتال ، وهو الجزء الأول من ثلاثيته عن تاريخ الصهيونية . ورغم ذلك فإن قراءة الجزء الثالث من المجموعة The Critical Phase مهمة جداً لنبداً فى فهم الإجراءات الغربية التى أثمرت عن وعد بلفور .

٦- بالغ تشرشل فى تقديره لأهمية اليهود الأمريكين ، معتقداً أن دعم بريطانيا للصهيونية سوف يعزز دعم اليهود الأمريكين لوجود أمريكا فى الحرب (Cohen 1985: 74) . ويقدم ڤيتال تفسيراً محتملاً لهذا الهوس بسلطة اليهود أثناء فترة الحرب ، ويكتب قائلاً إن توازن القوى بين الأطراف المختلفة فى الحرب كان «متساوياً جداً وغير ثابت ولهذا فكان للخوف أو الأمل فى أن ينجح أى عنصر إضافى فى جعل الكفة تميل هنا أو هناك خوفاً له وجاهته» (Vital 1987: 191) .

٧- بدأ التمرد كإضراب عام - حملة لعدم التعاون اقتصادياً مع البريطانيين والصهاينة استمرت لستة شهور . ثم تحول الأمر بعد ذلك إلى حرب عصابات فى الريف . ولا يوجد تاريخ كاف لهذا التمرد .

الفصل الثامن

الهولوكوست النازى . .

برهان الضرورة الملحة لدولة يهودية

١- ينكر بريمو ليثى أنه كان شاهداً حقيقياً: انظر أسبابه المذكورة فى كتاب هويسباوم

1) (1994) شهادات الهولوكوست وفنه يتطرقون أيضا إلى هذا الموضوع، الذي لا توجد كلمات قادرة على وصفه، وهو مسألة بقاء يهود على قيد الحياة على حساب موت يهود آخرين. انظر المشهد البربري في فيلم Shoah للاندرمان، النص المكتوب للفيلم (1985: 114-16) وأمثلة أخرى في كتب الكارتون غير العادية Maus الجزء الأول والثاني. (Spielgelman 1987 and 1992).

٢- أود أن أشكر موسى ماكوفر لأنه لفت انتباهي إلى هذا الكتاب المنشور بشكل سري.

٣- هذا الجزء من الرسالة استشهد به إن. إسرائيلى في بوبر (١٩٧٢م) إن. إسرائيلى كان اسما مستعارا استخدمه موسى ماكوفر وأكيفا أور، الإسرائيليان الراديكاليان اللذان بنيا تحديا كبيرا للنفوذ الصهيوني وسط الحركة الطلابية الراديكالية العالمية في ١٩٦٨ وما تبع هذه الحركة.

٤- بعض المستندات المتعلقة باتفاقية التهجير «الترانسفير» أعيد طبعها في كتاب برينر (٢٠٠٢م) وأقدم تعليقا نقديا على تناول برينر في الملاحظة التالية.

٥- مشكلة تناول برينر يمكن اختصارها في العنوان الفرعى لكتابه 51 Documents كتابه السابق (1983) Zionism in the Age of the Dictators كان إبداعا حقيقيا يظهر بعض الحالات المريعة التي تعاون فيها الصهاينة مع النازيين في أوقات معينة. ويظهر الكتاب قدرة الصهيونية على محاكاة معذبها في بعض الأوقات. ولكن من الغباء أن نصل إلى استنتاج بأن التعاون الصهيوني مع النازيين كان مبنيا بشكل أساسى أو تلقائى على المشروع الصهيوني، وهو تأويل يمكن وضعه على العنوان الفرعى لكتاب برينر 51 Documents. الصهيونية كانت قادرة عن جدارة، على استشارة المقاومة ضد النازيين، كما يوضح زوكرمان أحد قادة انتفاضة جيتو وارسو في مذكراته الضخمة A Surplus Memory. صحيح أن زوكرمان نفسه كان ناقدا لكسل القادة الصهاينة عندما يتعلق الأمر بالإنقاذ والمقاومة، إلا أنه لم يشك أبدا في كون الصهيونية نفسها مسئولة عن ذلك. انظر أيضا رواية لبقاى الرائعة التي تحمل في جزء منها سيرة ذاتية للكاتب وهي رواية (1987) If Not Now, When? التي تحكى قصة مناضلين يهود يحاربون النازيين في الغابات. كون أن هذه الصهيونية نفسها استخدمت مناضليها ومقاومها الأبطال ضد النازية لتحقيق نتائج متناقضة تماما أيديولوجيا في فلسطين، هو أمر آخر.

٦- الخروج أصبح أسطورة بنفس الدرجة في بلدى ومسقط رأسى.

٧- للتعرف على إشكالية رد الفعل العربى، انظر الفصل الأول في كتاب پايى «المعركة الديبلوماسية».

٨- رواية البحث عن فاطمة لغادة كارمى .

٩- ولكننا نعلم أن ذلك ليس مقصوداً على الحقبة النازية . ففي عام ١٩٩٤م ذبح حوالي مليون شخص فى رواندا فى مائة يوم فقط ، وهو معدل للقتل أعلى بكثير من معدل الهولوكوست . وقد استخدمت الأمم المتحدة فى وصفها ما حدث تعبير الإبادة الجماعية ولأول مرة منذ الهولوكوست . وكان ما حدث هو محاولة منظمة للقضاء على مجموعة عرقية وهى التوتسى من قبل حكومة الهوتو القوية ، وكان الهوتو يمثلون الغالبية فى روندا . وقد أطلق الهوتو على عمليات القتل هذه «الحل الأخير» . فرق القتل الهوتوية تم تجنيدها بشكل مباشر من رحم الانهيار الاقتصادى الذى شهدته البلاد فى أواخر الثمانينات . وكان رجل إنجليزى قد أدخل علم العرقيات إلى رواندا فى القرن التاسع عشر ، وبعد دراسة متأنية توصل إلى أن التوتسى هو جنس أرقى ، ولهم - فى أغلب الظن - أصول أوروبية . وبعد ذلك لعبت بلجيكا التى احتلت البلاد على الخلافات بين الهوتو والتوتسى بحيث جعلتها سمة مميزة لرواندا . وفى فترة الإبادة الجماعية لعبت دعاية الهوتو على هذه الخلافات . هذه المعلومات من كتاب فيليب جوريفيتش (١٩٩٩م) .

١٠- على الرغم من عدم وجود سلطة دولية جادة لها القوة أو الرغبة فى تنفيذها .

١١- لفت ماكورن نظرى إلى ما يسميه الفصل الناقص فى كتابى والذى يجب أن يكون الفصل التالى وفقاً للترتيب الزمنى . هذا الفصل كان يجب أن يتضمن كل الأساطير الصهيونية التى أحاطت بحرب ١٩٤٨-١٩٤٩م . ولكن لحسن الحظ ، كما يقول ، فإن هناك كتاباً كاملاً وليس فصلاً واحداً يدحض هذه الأساطير واحدة واحدة . هذا الكتاب هو *The Birth of Israel: Myths and Realities*. (1987) لسمحا فلايان الذى كان صهيونياً طوال حياته لكنه غير رأيه فى نهاية حياته ، أما الأساطير التى دحضها الكتاب فهى (أ) الصهاينة قبلوا قرار الأمم المتحدة بالتقسيم وأنهم كانوا يخططون للسلام . (ب) العرب رفضوا قرار التقسيم وخططوا للحرب . (ج) الفلسطينيون هربوا يشكل طوعى بهدف إعادة الغزو . (د) كل الدول العربية اتحدت لطرد اليهود من فلسطين . (هـ) الاحتلال العربى جعل من الحرب أمراً لا يمكن تجنبه . (و) إسرائيل التى لا تستطيع الدفاع عن نفسها واجهت التدمير من قبل جالوت العربى . (ز) إسرائيل كانت دائماً تسعى للسلام ولكن لم يكن هناك أى زعيم عربى متجاوب .

الفصل التاسع

هل هي إسرائيل الصغيرة الجسورة؟
أم محمية القوة العظمى؟ (٢)
الرصيد الاستراتيجي للولايات المتحدة

١- وأنا أنهى كتابة هذا الفصل في صيف ٢٠٠٣م، نشر العالم الفلسطيني ناصر عرورى كتابه Dishonest Broker: the US Role in the Middle East and Palestine . وهو كتاب ممتاز يجب قراءته مع كتاب تشومسكى .

٢- لتحليل موضوعي للمساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل يمكنك زيارة موقع Washington Report on Middle East Affairs على الإنترنت تحت عنوان المساعدات الأمريكية المالية لإسرائيل: الأرقام والحقائق والتأثير .

٣- موقع Middle East Research and Information Project: www.merip.org .

٤- سأناقش «معاداة العرب للسامية» في الفصل العاشر .

٥- كتاب أرورى (2003: 205-9) يقدم رقداً دقيقاً لهذه الحقبة الخسيسة من فترة ولاية الرئيس بوش .

٦- هذه النقطة ناقشها الكس كالينيكوس بالتفصيل في مقاله الاستراتيجية العظمى للإمبراطورية الأمريكية في دورية International Socialism Journal العدد السابع والتسعين (London: Socialist Workers Party, 2002).

٧- انظر مقال إم . تى . كلير «خطة بوش الأساسية للنفط» والمنشورة بتاريخ ٢٣ أبريل ٢٠٠٢م على موقع www.alternet.org وهى المقالة التى تناولها كالينيكوس فى مقاله سابق الذكر .

٨- انظر أيضا مقال جاسون فست «رجال من JINSA و JSP» فى مجلة ذا نيشن الأمريكية بتاريخ ٢ سبتمبر ٢٠٠٢م وهو متوافر على شبكة الإنترنت .

٩- فى وقت التحرير النهائى لهذا الكتاب فى أبريل ٢٠٠٤م، كان مصير خارطة الطريق قد أصبح واضحا . فقد بنى بوش خطة شارون بانسحاب أحادى الجانب من قطاع غزة وتعزيز معظم المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية . ورفضت الولايات المتحدة الأمريكية توجيه النقد لإسرائيل لاغتيالها قادة حماس الشيخ أحمد يس والشيخ عبد العزيز الرنتيسى فى

تناقض سافر لنقد الرئيس بوش قبل ذلك المحاولة الفاشلة لاغتيال الرنتيسى . وبالإضافة إلى ذلك سمحت الولايات المتحدة لإسرائيل بالاستمرار فى بناء ما يسمى بالجدار الأمنى ، والذي يسميه المراقبون فى كل مكان فى العالم بجدار الفصل العنصرى . وبات من الواضح أن بوش وشارون استبعدا حتى القادة العرب الأكثر اعتدالا وهما يضعان نهاية خارطة الطريق .

من المؤكد الآن أن المحافظين الجدد يتحكمون بشكل كامل فى حكومة بوش ، ربما . ولكن ألم تكن حكومة بوش أيضاً تشهد علامات يأسها وتتمسك بصديقها الوحيد فى منطقة الشرق الأوسط فى الوقت الذى كانت سياستها فى المنطقة ، وبشكل حرفى ، تتبخر مع دخان القنابل؟ فسياسة بوش فى العراق أدت إلى إحداث فوضى جعلت بوش يطلب من الأمم المتحدة التدخل لمساعدته فى الخروج من هذه الورطة ، وهى بالضبط السياسة التى كان المحافظون الجدد يرفضونها . بل إن بوش قام أيضاً بمدح الأخضر الإبراهيمى مبعوث الأمم المتحدة إلى العراق ، فى نفس المؤتمر الصحفى الذى أعلن فيه عن تأييده لشارون والذى عقده فى البيت الأبيض فى ١٦ أبريل ٢٠٠٤م . وقد يتذكر القارئ البريطانى وجود رئيس الوزراء البريطانى تونى بليير وهو يقف بائساً فى ظله . ومع ذلك رفض إبراهيمى سياسة بوش تجاه إسرائيل ، ولم يخش من مهاجمتها بشكل علنى . وعلى الفور بعد تبنى بوش لسياسات شارون ، قام الإبراهيمى عدة مرات بمهاجمة إسرائيل بشكل حاد واصفا سياساتها بأنها ليست أكثر من «سم فى المنطقة» (Ha 'artez, 24 April 2004) .

الفصل العاشر

«نحن ، اليهود ، هم ، العرب» (٢)
التهايش اليهودى العربى المفقود
والبحث عن شعلة الأمل من الماضى

١- يناقش كرامر التنوع الكبير للمخلفية الإثنية ليهود مصر فى كتابه *The Jews of Modern Egypt 1914-1952* وعلى الأرجح كانت أقدم جماعة يهودية فى مصر فى بدايات القرن العشرين هى الكرايتين (Kramer 1989: 22-6) ، وكان عددهم ما بين ستة وسبعة آلاف يهودى من أبناء البلد من بين جالية مهاجرة وصلت إلى حوالى خمسة وعشرين ألفاً فى مصر عام ١٨٩٧م .

٢- عباس شبلاق من الفلسطينيين القلائل الذين كتبوا عن اليهود فى البلاد العربية .

٣- اقرأ ما كتبه نعيم جيلادى أحد أعضاء الفهود السود على موقع www.inminds.co.uk على شبكة الإنترنت . تستطيع أيضا الاطلاع على الفصل ذى الصلة فى كتاب ديثيد هيرست البندقية وغصن الزيتون على الموقع التالى : www.mideastfact.com/iraqi-jews-hirst.html وأنا مدين بالشكر لرونالد رانس لأنه لفت انتباهى لهذين الموقعين .

٤- الكتاب هو دورية باللغة الإنجليزية يصدرها اليهود العراقيين السابقين ، ويمكن الحصول عليها من على شبكة الإنترنت من خلال البريد التالى scribe@dangoor.com .

٥- الانقلابات العسكرية التى قام بها ضباط عرب فى الجيش برتب متوسطة وصغيرة كانت ضرورية فى النهاية للتخلص من الحكم الاستعمارى ، وهو ما جسد فشل كل من الحركات الديمقراطية الليبرالية والحركات الشيوعية فى تحقيق ذلك .

٦- لمزيد من التفاصيل حول هذا الجزء المتجاهل من تاريخ الشرق الأوسط ، انظر كتاب شلايم (23-117: 2000) . إن انفتاح عبد الناصر بل وربما حتى عقلانيته الساذجة فى تلك المرحلة المبكرة من حكمه يرد على كل الصور التى حاول الصهاينة والغرب رسمها للزعيم المصرى الراحل .

٧- بحث جويل بينين (١٩٩٨م) رائع ، ولكنى أتفق معه بشكل جزئى فى تفسيره ، حيث يرى أن كلاً من القومية العربية والصهيونية مسئول بنفس الدرجة عن إبعاد اليهود المصريين .

٨- هذا أيضا كان مصير يوسف درويش . وقد حالقنى الحظ وقابلت هذا القائد الشيوعى المصرى السابق فى القاهرة عام ٢٠٠٢م . كان درويش وهو فى عامه الواحد والتسعين بصحة جيدة وهو يتحدث بحرية وعمق عن خلفيته اليهودية وعن عدائه للصهيونية والدمار الذى لحق بالقضية الشيوعية بسبب اعتراف ستالين بإسرائيل . لقد كان لدى يوسف درويش كل حجة للانفصال عن أصوله المصرية . فقد تعرض للتعذيب مع العشرات غيره من الشيوعيين فى سجون عبد الناصر . بل إن الشيوعيين المصريين أنفسهم فرضوا حظراً يمنع تولى اليهود الأعضاء من الترشيح لعضوية اللجنة المركزية ، وذلك على الرغم من تحول ثلاثة من القيادات القادرة على ذلك إلى الإسلام ، وكان بينهم يوسف درويش . كان ذلك مثلاً قاسياً وإن كان دقيقاً لعدم قدرة حتى الأطياف اليسارية فى الثقافة السياسية على الوقوف فى وجه الخطاب السائد الذى حركته الصهيونية وتبنته القومية العربية خاصة بعد حرب السويس . كل يهودى ، حتى من أسلم منهم ، كان خائناً محتملاً للأمة العربية . وبالطبع يمكن أن نفسر ذلك بأنه

معادة عربية للسامية، ولكن الأهم من ذلك أنه عكس حجم نجاح الصهيونية في تحديد تعريف اليهودى فى الشرق الأوسط لتجعله يعنى مواطناً محتملاً للدولة اليهودية المقامة على أرض يهودية مسروقة. ولكن لم يؤثر أى من ذلك على حماس درويش لمعتقداته اليسارية أو على حبه لمصر وثقته فى إمكانيات شعبها.

للمزيد من المعلومات عن يوسف درويش انظر المقال الذى كتب عنه فى مجلة كايرو تايمز التى تصدر باللغة الإنجليزية فى عددها الصادر فى نوفمبر ٢٠٠٠م، وناقش جويل بينين هو الآخر يوسف درويش وباقى الشيوعيين اليهود فى كتبه

Was the Red Flag Flying There? Marxist Politics و The Dispersion of Egyptian Jewry and the Arab-Israeli Conflict in Egypt and Israel, 1948-1965.

خاتمة... من الرماد

١- انظر سيلبرستاين (١٩٩٩م) ونيمنى (٢٠٠٣م).
